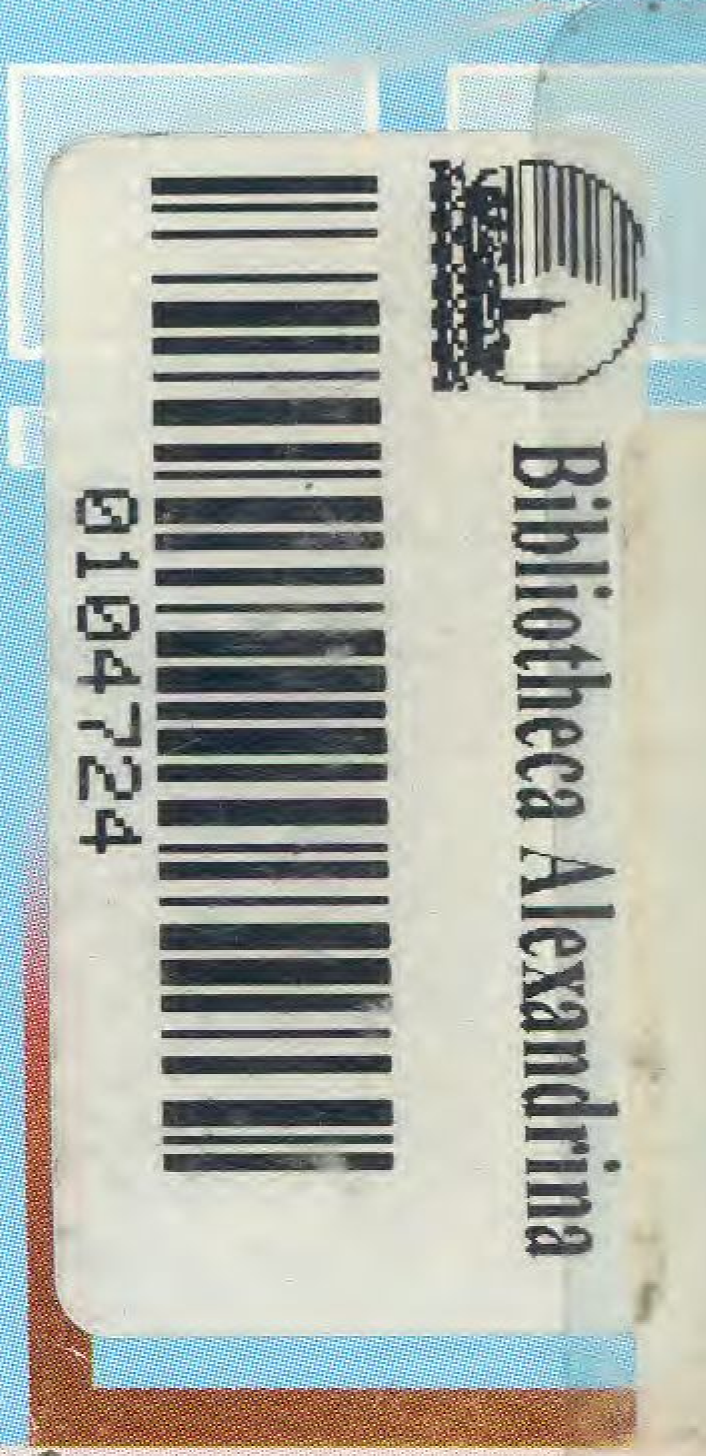
فى
التنوير الإسلامى
«٣١»

الدين والتراث والحداثة والتنمية والحرية

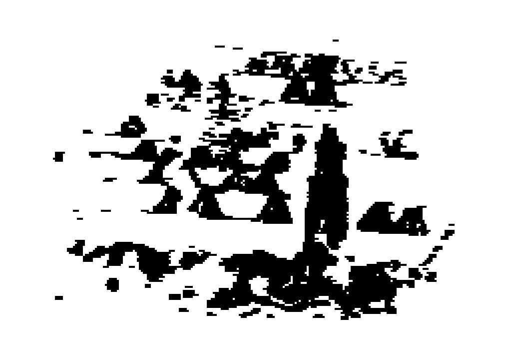
تأليف :
د . محمد خاتمى





فـى التنوير الإســـلامى 

الدين والتراث والحداثة والتنمية والحرية



تأليف:

د . محمد خاتمى

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٣٨



اسم الكتاب: الدين والتراث والحداثة والتنمية والحرية

اسم المؤلف: د / محمد خاتمى

تاريخ النشر: فبراير ١٩٩٩م . (طبعة أولى)

رقم الإيداع: ١٧٣٧ / ١٩٩٩م .

الترقيم الدولى: I . S . B . N 977 - 14 - 0901 - 8

الناشر: دار **نهضة مصر** للطباعة والنشر والتوزيع .

المركز الرئيسى: ٨٠ المنطقة الصناعية الرابعة .

مدينة السادس من أكتوبر .

ت: ٣٣٠٢٨٧ / ٠١١ (١٠ خطوط)

فاكس: ٠١١/٣٣٠٢٩٦

مركز التوزيع: ١٨ ش كامل صدقى - الفجالة - القاهرة

ت: ٥٩٠٩٨٢٧ - ٠٢/٥٩٠٨٨٩٥

فاكس: ٠٢/٥٩٠٣٣٩٥ **ص.ب:** ٩٦ الفجالة .

إدارة النشر: ٢١ ش أحمد عرابى - المهندسين - الجيزة

ت: ٣٤٦٦٤٣٤ - ٠٢/٣٤٧٢٨٦٤

فاكس: ٠٢/٣٤٦٢٥٧٦ **ص.ب:** ٢٠ إمبابة .

بسم الله الرحمن الرحيم

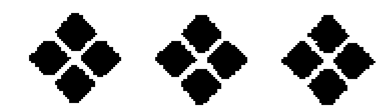
تقديم

صاحب هذا الكتاب لم يعد فى حاجة إلى تعريف . . فهو الدكتور محمد خاتمى ، رئيس الجمهورية الإسلامية الإيرانية ، والذى أحدث اختيار الشعب الإيرانى له ـ بأغلبية كبيرة ـ هزات وتساؤلات وتنبؤات وتطورات فى الحياة الداخلية بإيران ، وفى العلاقات الإيرانية بدول الجوار والمحيط ـ العربى والإسلامى ـ وفى العلاقات الإيرانية ـ الدولية ، لاتزال متنامية حتى الآن . .

والدكتور خاتمى ، لقبه المفضل والأشهر «سيد» محمد خاتمى ، لأنه ـ وفق التقاليد الشيعية – من «السادة» ، أى آل بيت رسول الله ، ﷺ . . ولد سنة ١٩٤٣م بمدينة «أردكان» ، فى أسرة متدينة ، لوالد هو آية الله روح الله خاتمى . . وجمع فى دراسته بين أصول الفقه والفلسفة والتربية . . وشملت اهتماماته علوم الحديث وفلسفة هيجل وماركس . . وإلى جانب الفارسية ألم باللغات العربية والانجليزية والألمانية . . ولأنه قد جمع بين الثقافة الدينية والثقافة المدنية ، عندما تعلم فى «الحوزة» العلمية بمدينة «قم» الإيرانية ، ودرس فى جامعة طهران ، وتخرج منها . . فلقد تميزت رؤيته الفكرية بالأصولية الدينية المستنيرة ، ورؤية الحضارة الحديثة ، بتياراتها الفلسفية والاجتماعية والثقافية المتعددة . فهو يرى العالم من موقع العالم الدينى ، ويرى التراث الدينى من موقع المثقف المتفتح على ثقافات العالم ، وبذلك تميزت وتتميز رؤيته الفكرية

عن أولئك الذين أصابهم «العور الفكرى» ، فلا ينظرون إلا بعين واحدة : عين «الموروث» وحدها . . أو عين «الوافد» دون سواها! . .

لذلك كان الرجل نموذجا «للإسلامى» الذى لايخاصم العالم ، و«للعالمية» المنظور إليها من خلال حضارة الإسلام .



أما الدراسات الثلاث التى نقدمها ـ للدكتور خاتمى ـ فى هذا الكتاب ، فهى ـ فى الأصل ـ ثلاث محاضرات ألقاها فى «لبنان» ـ قبل أن يصبح رئيسا للجمهورية الإيرانية .

أولاهـا: عن (الدين والعصر) .

والثانية: عن (التراث والحداثة والتنمية) ـ ألقاهما فى شهر ديسمبر سنة ١٩٩٦م .

والثالثة: عن (التنمية والحرية) ـ ألقاها فى صيف سنة ١٩٩٥م .

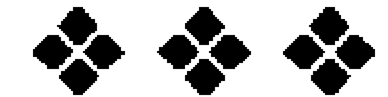
ولقد اخترنا هذه المحاضرات الثلاث من بين عدد أكبر من محاضرات الدكتور خاتمى[1] ـ لأن موضوعاتها من أكثر الموضوعات حساسية وإثارة للجدل بين تيارات الفكر فى وطن العروبة وعالم الإسلام . . ولأن هذه المحاضرات هى من بين ما ألقاه الدكتور خاتمى خارج إيران ، **ففيها كان خطابه لجمهور مفكرى الأمة ومثقفيها، وليس ـ كمحاضرات له أخرى ـ ألقيت فى إيران فجاءت محكومة بالموروث الشيعى وحده ـ أو أكثر من غيره ـ وموجهة إلى**

---

(١) ولقد سبق ونشرت هذه المحاضرات ، ضمن كتاب عنوانه (مطالعات فى الدين والإسلام والعصر) ، قدم له السيد محمد على أبطحى . وطبعته دار الجديد سنة ١٩٩٨م .

جمهور الشيعة دون غيرهم، أو قبل غيرهم من المفكرين والمثقفين فى عالم الإسلام..

لذلك، سيجد القارىء لهذه الدراسات نفسه أمام عالم إسلامى، لا يحبسه مذهب، ويخاطب الأمة، لا شعبا بعينه، ولا دولة قطرية بذاتها.. كما سيجد القارىء نفسه بإزاء مصلح إسلامى، ملتزم بأصول الإسلام، وبمنظاره يرى العالم بأسره، كما يرى الإسلام فى ضوء القضايا والتحديات العالمية التى تواجه الإسلام والمسلمين.



ورغم أن أهمية الأفكار والقضايا التى تناولها الدكتور خاتمى فى هذه الدراسات . . والوضوح الذى امتاز به عرضه لهذه القضايا ، يغرينا بأن ندع القارىء وجها لوجه مع هذه الدراسات ، ودون مقدمات . . إلا أن قليلا من الأضواء على الموقع الفكرى للدكتور خاتمى ، وعلى القضايا التى تناولها فى هذه الدراسات قد يكون ضروريا فى التعريف ، وفتح الأبواب لجمهور القراء . .

● فالدكتور خاتمى يضع نفسه ـ كما يضعه فكره ـ فى **«المدرسة الإصلاحية الإسلامية»** . . لكنه يتميز بين رجالات الإصلاح الإسلامى بالانتماء إلى **«المذهب العرفانى»**، الذى يعتمد فى تحصيل الحقيقة الدينية ـ وليس فى دراسة الكون والاجتماع والسياسات ـ على **«القلب»**، القادر على **«الوصول»** إلى المطلق واليقين . . ولكن دون نبذ **«للعقل»**، الذى هو سبيل الوصول إلى أصل الوجود الغيبى ، وبه تتيسر الحياة . . فعنده **«أن السبيل المطمئن لمعرفة الله عز وجل، هو طريق الوصول لا الفهم، وطريق**

القلب لا العقل. هو الطريق الذى أكدته الأديان بقوة. ولقد علّمنا أئمة الإسلام بأن «العقل ما عُبد به الرحمن واكتُسِب به الجنان» وهذا يعنى أن العقل هنا هو مصدر عبادة لا مصدر فهم. وفى قول آخر، رأوا العبادة سبيلا إلى اليقين، وليس الانتقال من المقدمات المعلومة إلى النتيجة المجهولة، ودليل هذا ما جاء فى القرآن الكريم: ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾[1] وهذا يعنى أن الطريق المطلوب للمعرفة الدينية الإلهية هو طريق الوصول لا الفهم.

وهذا، بطبيعة الحال، لا يعنى، بأى وجه، التنكر لقوة العقل والمعرفة الفلسفية والعملية، وخاصة فى الإسلام، الذى اهتم إلى حد بعيد، بالعقل وبالتدبر، ولكن لابد من معرفة حدود كل بُعد من أبعاد روح الإنسان، ومن أراد أن يكون مؤمنا صادقا فلابد له من سلوك طريق القلب[2]... إن العقل هو المشترك بين الناس. وهو لا يستطيع إيصالنا إلى الحقيقة المطلقة.. ونحن لا نستطيع بلوغ الكنه المطلق بالعقل، وقد ذكر العارفون أن ما يُفهم من العقل كمصطلح يقوم بهذا الفهم فى المطلق. هو القلب، لا العقل.

وهنا تعرض مسألة دقيقة لابد من جلائها. فنحن إما أن نُبقى على سلطان العقل من البداية، وإما أن نضعه ونضع الإيمان فى مقابله، فيأخذ هذا الإيمان الموضوع مقابل العقل فى توجيه الإنسان أولا فأولا نحو الإيمان الكلى، ومن هنا يكون السلطان للقلب، كما عرفه العارفون،

---

(١) الحجر : ٩٩ .

(٢) العبارة القادمة من حوار مع د . خاتمى ، أجرته وأذاعته محطة «تلفاز المنار» ـ اللبنانية ـ فى ديسمبر سنة ١٩٩٦م .

ويكون له وحده أن يقودنا إلى عالم ما وراء الطبيعة، بأن الوجود أكبر من المادة وأعم، وأن ثمة غيبا فى مقابل الشهود، وهى الأبواب التى يدخل منها القلب.

وإذا قبلنا بالعقل والقلب فإننا نستطيع بلوغ الإيمان، ولكننا إذا نبذنا العقل فلن نلبث أن نُخرج الدين من ساحتنا بعد مدة قصيرة، لأن العقل آلة لا تتيسر الحياة من دونها.. فنحن بالعقل نصل إلى أصل الوجود الغيبى، وبه نُرسِّخ الفهم عن الوصى[1]. ومن ثم تكفينا الرياضة ـ ومجاهدة النفس للمضى قُدما نحو الحقيقة. بيد أننا عندما نريد فهم الكون والوحى فإننا نتوسل بالعقل وسيلة، ولكن مع ملاحظة أن استنتاجاته نسبية، الأمر الذى يحفظنا من الظن مثلا أن ما نفهمه من القرآن والسنة هو عين الحقيقة.

إن بوسعنا، فى أزمنة متعددة وفى أمكنة مختلفة، أن نصل بالعقل إلى أكثر من فهم للنص، وهو أمر يتفق وجوهر الدين الذى يؤكد أن فكرنا الدينى متطور ومتغير دائما..».

وغنى عن البيان ، أن هذا الطريق ـ طريق الوصول لا الفهم ـ والذى سلكه ويسلكه أصحاب «المذهب العرفانى» ، هو طريق حق وصعب فى ذات الوقت ، لا ينكره عاقل ، لكنه ليس الطريق العام الميسور الذى يستوعب الأمة.. فالعقل الذى «تترطب» معارفه بالقلب، والقلب الذى تُضبط بواطنُه وإلهاماتُه وهِباتُه بالعقل، هو طريق الشريعة والجمهور.. صحيح أن هناك من يصل إلى سقف

---

(١) الوصى ـ فى عقائد الشيعة ، التى يختصون بها ، وتخالفهم فيها كل مذاهب أهل السنة ـ هو الإمام المعصوم .

الحقيقة المقدورة للإنسان بالعقل وحده.. ومن يصل إلى هذا السقف بالقلب وحده.. لكن هؤلاء وهؤلاء من الندرة بحيث يشير إليهم الزمان بأصابع الأجيال! - كما كان يقول الإمام محمد عبده - عليه رحمة الله.

● والدين - الذى خصه الدكتور خاتمى فى هذه الدراسات بمحاضرة كاملة - هو: المقدس، المتسامى، المتعالى.. وهو الفطرة التى فطر الله الناس عليها، والتى بدونها لا معنى لحياة الإنسان.. «فالدين توأم الإنسان، وأقدم الموجودات البشرية. وحياة الإنسان من غير دين ومن دون التسليم لأمر متعال وسام لا معنى لها.. فجوهر الدين مقدس متعال، ولو جُرد الدين من القداسة والسمو لخرج عن كونه دينا..».

● ولأن «الدين» وضع إلهى ثابت، ومقدس، ومتسام، ومتعال.. تميّز - فى الرؤية الإسلامية - عن «الفكر الدينى»، الذى هو اجتهادات بشرية - ظنية - والذى يمثل رؤية العلماء والمفكرين للوحى وللكون، ولعلاقة الأحكام بالواقع الذى يعيش فيه هؤلاء المفكرون والعلماء. فالتمييز بين الدين وبين الفكر الدينى، ضرورة لتمييز «الإلهى» عن «البشرى»، والمقدس عن مالا عصمة له، كما هو شرط للتطور الذى يواكب المستجدات والمتغيرات.. ومن هنا «تتلخص خدمة الدين - فى عصرنا - فى التمييز، بشجاعة، بين جوهر الدين كشأن مقدس ومتسام، وبين تصورات الإنسان عنه، والتى هى أمر محدود ونسبى ويدركها التغير. وبذا تظل للدين منزلته المقدسة فى أعماق أفئدة المؤمنين، وتفتح، من جهة أخرى، آفاق التحول الإيجابى فى الفكر الدينى... وإذا حلّت التقاليد وحل فهم الإنسان

المحدود محل الموضوعات المقدسة والمتسامية، ففى هذه الحالة سيعد أى نوع من الاعتراض على هذا الفهم والعرف بدعة وخروجا على الدين، وعندها تُمسى محاربة المبتدع أمرا مقدسا وساميا..».

● وتراث الأمة هو معين الهوية التاريخية والاجتماعية للحضارة والأمة ، وهو سبب تميز ثقافة الأمة عن ثقافات الأمم الأخرى . .

لكن هذا التراث يجب أن لا يكون عقبة أمام التغيير والتقدم والتجديد ، وإنما يجب أن يستند إليه ويرتكز عليه أى تغيير . . فلا يجب تحويل التراث إلى عقبة أمام التغيير . . ولا يصح أن يتم التغيير بمعزل عن التراث . . ذلك أنه «**هو معين الهوية التاريخية والاجتماعية للأمم، وخاصة الأمة التى لها حضارة متميزة وثقافة غنية. فالتراث تجلٍّ لثقافة المجتمع، ولا مجتمع من دون ثقافة... والقضاء على التراث يعنى مصادرة أساس الهوية التاريخية والثقافية للأمة والقضاء عليها.**

وإذا ما قُدر لأمة أن تتغير، فإنه ينبغى لها فى البدء أن تستشعر وجودها وشخصيتها من خلال ارتكازها إلى هويتها التاريخية، لكى تتمكن من الانطلاق منها... ألم يستيقظ الغرب بفضل عودته إلى التراث، إذ عاد المفكرون إلى التراث اليونانى، الفكرى والفنى، وإلى تراث روما الاجتماعى، عصر النهضة، كما عاد المتدينون إلى ما كانوا يعتبرونه حقيقة دين المسيح الحقيقى، عصر الإصلاح، وكانت هذه العودة ذاتها مصدر إلهام لعصر البناء والإعمار.. فلا مفر من الاتكاء على التراث حتى فى الصراع معه.. والنهج السليم هو أن تكون لنا مساهمة واعية حذرة فى عملية التغيير والتحول، وفى إعادة صياغة التراث باعتباره موضوعا بشريا.. والحذر من اعتبار التراث أمرا مقدسا لا يحتمل التغيير..».

● أما «الحداثة» ـ التى شغلت فضاء ثقافتنا ، ودار الجدل حولها منذ أكثر من قرن من الزمان ـ فإنها هى ثقافة الحضارة الغربية الحديثة والمعاصرة ، التى تميزت عن ثقافتنا الإسلامية ، بل وعن ثقافة أوروبا فى العصور الوسطى الأوروبية ، «بالتمحور حول الإنسان» ، بدلا من «التمحور حول الله» .

«فالحداثة لفظ يراد به التحولات التى جرت فى الغرب فى العصر الأخير من تاريخ الإنسان، وبالتالى يمكن القول، بتعبير أدق، إن الحداثة روح الحضارة الجديدة، والثقافة المنسجمة معها.. فلكل حضارة ثقافتها التى تنسجم معها... والاختلاف والتباين بين ثقافتنا الحالية-التى تتمحور حول الله-وبين ثقافة الحداثة الغربية-المنسجمة مع الحضارة الغربية-التى تتمحور حول الإنسان-إنما هو اختلاف جوهرى فى جنس الحضارات..

لقد كانت ثقافة العالم الإسلامى وثقافة الغرب القروسطية، على نحو ما، نَوْعى جنس واحد، إن لم نقل إنهما صنفا نوع واحد، وكان أبرز وجوه الشبه بينهما هو محورية الله فى فكر الإنسان واعتقاده وفى نظامه الفكرى والأخلاقى والعاطفى.. ولقد حارب الغرب ثقافته القروسطية هذه، وكان من نتيجة حربه عليها ظهور حضارته الحديثة وثقافته الحديثة، التى تبوأ الإنسان سدة المحورية فيها.. فكان ذلك التحول-من محورية الله إلى محورية الإنسان-أبرز وجوه الاختلاف بين ثقافتنا وتقاليدنا الثقافية وبين ثقافة الغرب وحضارته الحديثة...»

● والتنمية ـ كما جاءتنا من الغرب . . وكما يطرحها ويتحاور فيها ويتجادل حولها مثقفونا الذين ينطلقون من منطلقات فكرية

واجتماعية واقتصادية وسياسية غربية . . . هذه التنمية ـ فى رأى الدكتور خاتمى ـ هى نموذج غربى متميز ، لأنها هى عطاء الحضارة الغربية ، ذات الثقافة الحداثية ، المتمحورة حول الإنسان ، بدلا من الله . . فنموذج هذه التنمية هو خصوصية غربية ، وليس بالنموذج العام أو العالمى ، الذى يجب أن تسلكه الحضارات والثقافات غير الغربية . . وإذا كانت «الحداثة» ـ أى الثقافة المتمحورة حول الإنسان ـ هى روح الغرب الحضارى ، فإن «التنمية» التى جاءتنا مع حداثته ، هى عطية هذا الغرب الحضارى ، دون غيره من الحضارات . .

«إن مجتمعاتنا بحاجة إلى التحول والتكامل. ولكن علينا أن نعلم أن التنمية، بمعناها الغربى، ليست أكثر من منهج فى التحول، ناهيك أنها ليست المنهج الوحيد.. ونحن اليوم نحيا فى عصر اتضحت فيه، أكثر من أى وقت مضى، نقاط ضعف الحضارة الحديثة وروحها: الحداثة، ليس خارج العالم الغربى فحسب، بل داخل الغرب أيضا. نحن نحيا فى عصر شكك الحداثيون أيضا فى شمولية الحضارة الغربية وقدرتها على تحقيق النهاية المرجوة، والأخذ بالبشرية إلى بر الأمان.

إن وعى هذا الأمر يقودنا إلى الامتناع عن التسليم الأعمى لمعايير التنمية الغربية.. إن التنمية التى تُطرح فى هذا العصر هى شأن غربى، وهى تنطوى على مفهوم صناعة أهل تلك الديار. فإذا كان المراد من التنمية مفهومها ذاك فلا مناص للراغبين بها من أن ينتحلوا الحضارة الغربية تلك.

أما بالنسبة لنا، فعندما نطرح السؤال المعهود:

ـ ماذا علينا أن نفعل في مضمار التنمية؟

لا نستطيع، بل لا ينبغي لنا أن نعود القهقرى ٤٠٠ سنة إلى الوراء، أي إلى نقطة البداية التي انبثق منها الغرب حتى وصل إلى حيث هو.. وإنما علينا، إذا ما كنا أهل تدبر واعتبار، أن نشق طريقنا إلى المستقبل، بملاحظة التجربة الغربية، فنبذل العناية بمزاياها ونواقصها، كي نتوفر على اختيار الأفضل وبلوغه.. ذلك أن الشرط في التحول الأساسي هو تجاوز الحضارة الغربية..».

● أما الحرية ـ التي يتحدث عنها الجميع . . ويشتاق إليها الكافة . . ويختلف حولها الأكثرون! فإنها تعني ـ في فكر الدكتور خاتمي ـ الحرية المسئولة عن ثوابت الأمة ، لا التي تعصف ـ باسم الحرية ـ بهذه الثوابت . . وهي أيضا تعني المسئولية الحرة لتغيير واقع الأمة الذي لابد من تغييره وتجديده وتطويره ، وليست المسئولية التي توقف عجلة التغيير باسم الحفاظ على التراث . . إنها ليست مجرد كلمة تقال . . وإنما لها ماهية . . ولها نموذج . .

«فما تعنيه بالحرية، بشكل دقيق، هو حرية الفكر، وتوافر عناصر الأمن في إبدائه، وتهيئة المقدمات اللازمة لتأمين تلك الحرية وضمان هذا الأمن.. إن التغيير والتقدم ينبغي أن يُسْبَقا بالفكر، والفكر لا ينمو إلا في إطار الحرية وعلى أرضيتها.

إن تخريب الفضاء الحياتي باسم الحرية، ومناهضة الحرية باسم الدفاع عن الدين ومصلحة البلد، هما وجهان لعملة واحدة.. إننا اليوم، في جامعاتنا وفي مدارسنا وفي بيوتنا، لا نتحمل بعضنا بعضا بسهولة وبساطة. فلا تشكُّو لحظة، في أننا ما لم نتغير من داخلنا، لا يسعنا أن ننتظر حل مشاكلنا من قبل الآخرين..

إن السبيل المطلوب والصواب هو أن تصل نخبة المجتمع وأن يصل مفكروه والمسئولون الذين ينشدون الخير فى إدارة الأمور فيه، إلى ميثاق يتوافقون فيه على الآتى:

أولاً: علينا أن نكف عن البحث فى العالم المعاصر عن مثال وحيد للحرية يتحول إلى نموذج يُقْتَدَى، يصلح للتعميم على الأمم جميعا..

ومع أن جوهر الحرية واحد، لكن ما أكثر الأمم والشعوب التى تستطيع أن تجرب وجوها مختلفة للحرية بلحظ تفاوت الأوضاع التاريخية-الاجتماعية، حتى يكون لها خيارات مختلفة فى طى طريق الحرية وتحديد أولويات مراتبها.

ثانياً: علينا أن نسعى لخلق جو نستطيع فيه أن يتحمل بعضنا بعضا بسهولة، كما علينا أن نجتهد كى نصل إلى تعريف للحرية يرضى الجميع، وأن نتوافق على الحد الأدنى وعلى الأولويات، شرط أن نؤطّر ذلك قانونيا..»..

● ولما كان الدكتور خاتمى قد امتلك ناصية الرؤية الإسلامية، وآثر أن يرى الإسلام على خارطة العصر، لا منعزلا عن العصر.. ولما كان هذا العصر - بما فيه الواقع الإسلامى بل والفكر الإسلامى المعاصر - يعانى من الهيمنة الغربية، ويشتبك مع المركزية الغربية، ويتفاعل مع قطاعات من الفكر الغربى، ويجاهد ليدفع عن ذاتيته الثقافية قطاعات أخرى من الوافد الفكرى الغربى.. لما كان هذا هو حالنا مع الغرب - المتعدد الوجوه - والذى غدا - بعد قرنين من الاستعمار لأغلب أقطار العالم الإسلامى والهيمنة عليها - يعشش

داخل عقولنا ، وليس فقط محتلا لأراضينا . . كان لابد للدكتور خاتمى من أن يعرض لموقفه من الغرب ، ورؤيته للتعامل معه . .

ولقد رأيناه يؤكد على أن الغرب ظاهرة مركبة ، يجب أن نتعرف عليها ، لا لنقلدها كلها ، وأيضا لا لنقاومها كلها ، وإنما لنقاوم سلبياتها ، ولنستفيد مما فيها من إيجابيات . . **«فمن النادر أن تجد شعبا أو بلدا غير غربى لم تُلهب ظهره سياط ظلم الغرب السياسى والاقتصادى، سواء فى صورته الاستعمارية القديمة-التى نهبت ذخائر الآخرين المادية والمعنوية، ودمرت البيئة، وأشاعت روح الإعلام الكاذب، والانتهازية، وأدت إلى أفول بريق الكثير من القيم الإنسانية والمثل المعنوية والأخلاقية من واقع حياة الإنسان الذى بهرته الدنيا-أم عبر نزعة التسلط المعاصرة التى تركبه وتسيطر عليه.**

بيد أن الغرب السياسى-الاقتصادى، ليس إلا وجها من وجوه الغرب؛ فالغرب بأجمعه هو حضارة ذات ثقافة خاصة، وهذه الحضارة وهذه الثقافة قامتا على مبادئ فكرية وقيمية خاصة، ومن دون التعرف عليها والإحاطة بها، تبقى معرفتنا بالغرب معرفة سطحية وظاهرية ومضلّلة..

وينبغى علينا التنبه واليقظة لدرء أخطار الغرب من جهة، والاستفادة من إنجازاته ومعطياته الإنسانية من جهة أخرى. وكل هذا ممكن إذا ما نضجنا فكريا وتاريخيا. ففى ظل ذلك تتوافر لدينا القدرة على التشخيص والانتقاء، ويتوافر قبولنا بمسئولية انتقائنا واختيارنا..».

● ولذلك ، اهتم الدكتور خاتمى بالحديث عن المواقف الفكرية - التى تبلورت فى حياتنا الفكرية - إزاء الغرب . .

فأمام الحضارة الغربية ، وثقافتها الحداثية الوافدة إلى بلادنا ، فى ركاب الغزوة الاستعمارية ، تبلورت فى بلادنا الإسلامية تيارات فكرية ثلاث :

١ـ التقليديون ـ المتشبثون بالتراث: «وهم الذين أصروا دائما على التمسك بالتراث بكل أبعاده ووجوهه، أو لنقل، بتعبير آخر، أصروا على تقليدهم وتصورهم الذهنى وسلوكهم الذى اعتادوه، وكان بالنسبة لهم أمرا مقدسا فى مقابل التجديد أو الحداثة، واعتقدوا أن بالإمكان العيش فى إطار التقليد الضيق الموروث عمن سلفهم بإيصاد الأبواب فى وجه أمواج الحضارة الغربية وثقافتها المندفعة..».

٢ـ والمتغربون ـ المقلدون للنموذج الغربى: «وهم الذين خيل إليهم أن الأزمة قابلة للحل من خلال قبول الحضارة الغربية بجميع أبعادها ومتطلباتها ومستلزماتها، بما فى ذلك ثقافة الحداثة.. وهؤلاء ـ بتحقيرهم للتراث واستهزائهم به، بدلا من تحليله ونقده ـ تجاهلوا نفوذه الراسخ، ولم يتمكنوا، فى أى وقت، من الحصول على مواطئ قدم فى مجتمع يعى التراث ويأنس به.. فمكثوا فى عزلة موجعة، ولذلك تعلقوا ـ بدافع المحافظة على بقائهم ـ بأذيال الحكومات المستبدة، أو أمسوا، عمليا وعن وعى فى الكثير من المواقف، منفذين لتطلعات الغرب الاستعمارية فى بلدانهم..»..

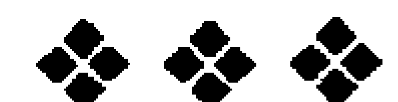
٣ـ والإصلاحيون: الذين يتعاملون مع التراث ومع الغرب الحضارى بمنهاج نقدى . . جعلهم يجمعون ، بالتجديد ـ المستصحب للثوابت ، والمجدد فى المتغيرات ـ كلا من ميزات التقليديين وميزات الحداثيين ، دون سلبياتهما . . فهذا التيار الإصلاحى ينطلق من مبدأين :

«الأول: هو «العودة إلى الذات» وإحياء الهوية الثقافية-التاريخية لأمتهم وشعبهم.

أما الثاني: فيقول بـ«التعامل الإيجابي مع معطيات التمدن البشري» وفي الوقت ذاته اتخاذ الحيطة والحذر في مقابل نزعة الغرب التوسعية وتوجهه الاستعماري».

ولقد حدد الدكتور خاتمي للإصلاح - الذي يعد نفسه واحدا من تياره - شروطا . . فالإصلاح عنده ليس مجرد فكر . . وإنما هو فكر تضعه «السياسة» في الممارسة والتطبيق . . **«فالإصلاح لايتحقق إلا إذا تبعت السياسة والنشاط السياسي الفكر والحكمة، ولم يُبقيا نطاقا مفروضا على الأفكار»..**

والفكر ، الذي هو شرط الإصلاح ، لابد أن يكون فكرا مبدعا وإبداعيا ، لا مجرد تكرار للإبداعات التي تجاوزها الواقع ونسخها التطور ، وطوى العصر الجديد صفحتها . . بل إن الإبداع - عند خاتمي - هو شرط صمود الهوية في المواجهات الحادة أمام التحديات الشرسة التي تواجهها حضارتنا وثقافتنا . . فالإبداع هو سبيل بلورة البدائل الإسلامية ، التي نملأ بها فضاءنا الثقافي ، حماية له من أن يملأه «الوافد» الضار! . . **«فالمجتمع الذي يفتقر إلى الفكر المبدع يفقد هويته في أول مواجهة مع أية مشكلة..»!**

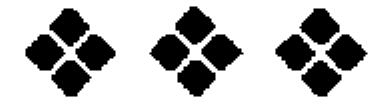


● وأخيرا . . . ينطلق الدكتور محمد خاتمي من هذه المعالم الفكرية ، التي قدمها حول (الدين . . والتراث . . والحداثة . . والتنمية . . والحرية) إلى نظرة مستقبلية ، تبشر بحضارة إسلامية

جديدة ، أو ـ بمعنى أدق ـ مستقبل جديد ، تتجدد فيه حضارة الإسلام وثقافتها الإسلامية . . فيقول :

«علينا، في سبيل تحديد معالم عصرنا الراهن، أن نتطلع إلى المستقبل، ولكي نتمكن من تصور مستقبلنا تصورا سليما ومقبولا، فلن يكون أمامنا خيار سوى أن نعي ماضينا ونألفه ونأنس به.. وأن نتسلح بنقد الحداثة والتراث معا، وأن نكون أصحاب رؤية جديدة في حياة الإنسان، في وقت نرتكز فيه إلى ماضينا الذي أنتج حضارتنا، وأن نستفيد ـ ونحن نتجاوز الغرب ـ من معطيات الحضارة الحديثة الباهرة، لاسيما وأننا نمتلك في التاريخ سابقة حضارية تركت بصماتها على مصير العالم والإنسان..».

فنحن «نتجاوز الغرب» ، دون أن ننغلق دونه فنرفضه جميعه . . و«نرتكز إلى ماضينا» ، دون أن نهاجر إليه . . وإنما لنقفز إلى مستقبل جديد ، تتجدد فيه حضارة الإسلام وثقافتها الإسلامية . .



تلك إشارات إلى أهم القضايا المحورية التي تناولتها الدراسات الثلاث التي كتبها الدكتور محمد خاتمي ، والتي نقدمها إلى القراء . . أما الآفاق . . والتفاصيل . . ولبنات هذه الرؤية ـ الإسلامية ، الموضوعية والمشرقة ، فإننا نترك القراء وإياها في صفحات هذا الكتاب .

والله نسأل أن ينفع به . . إنه أفضل مسئول ، وأكرم مجيب .

دكتور / محمد عمارة

الدين والعصر

ما هو موقعُ الدّين فى عصرنا ؟ وما هى معناةُ المُتَدَيِّن ومسؤولياتُه ؟ هذا هو السُّؤال .

إذاً فلتسمحوا لى بإعادة صياغته بدقّة أكبر فأقول : «أين موقعنا نحن فى عالم اليوم ؟» .

وبطبيعة الحال فإنَّ من الممكن تفسير الضمير «نحن» على وجوهٍ وبمعان شتّى ، والعثور على دلالات كثيرة له . بَيْدَ أنَّ ما نعنيه ويَتَّسِقُ وطبيعة بحثنا هو مجموعنا نحن المُتَدَيِّنين ، مسلمين ومسيحيِّين ويهودًا ، وغيرنا ، ممَّن نعيش خارج الحدود الرَّسمية للحضارة الغربية . ولكن وما دُمْتُ من يسأل ، وطبيعة اهتماماتى هى ما هى ، فإننى أقول على نحو أدقّ أيضاً بأنَّ المعنىَّ بالضمير «نحن» هنا إنّما هم نحن المسلمين على رغم أنه من المُمْكِن أنْ يكونَ المُخاطَب أيضاً لا يدين بالإسلام ، يعنى أنه من الممكن للسؤال ، إن حُوِّرت صيغته قليلاً ، أنْ يَحْظى باهتمام كلّ الذين يُراوِدُهُم هاجسُ الحياة الإنسانية وينشدون العزّة والكرامة ، من غير المسلمين .

■ محاضرة أُلقيت فى «دار الندوة» ببيروت فى الرابع من ديسمبر ١٩٩٦ بدعوة مشتركة من الدار المذكورة والحركة الثقافية ـ أنطلياس .

أجل ، إنَّنى أتساءل عن «الدّين» بصفتى مسلماً يريد أنْ يعيش عصره مُتَطَلِّعًا إلى المستقبل ، ويرغب فى دور لنفسه مُشَرِّفٍ فى بناء هذا المستقبل ، وفى سبيل تقدّمه . وهو تساؤل «من الذات» ، بمعنى أنَّنى لا أنظر إلى الدين مِنْ خارِجِهِ وكأنَّنى إنسان محايد لا رأىَ له ، بل إنَّنى أنظر نظرةَ مسلم يرنو إلى الحقيقة ، وإنْ كان لا مندوحةَ لنا عن النَّظر إلى الدين من الخارج كَيْلا نُبْتَلى بتعصّب لا مُبَرِّر له وكَيْلا نقع فى شرك النظرة الذاتية العمياء .

وأنا عندما أتساءل عن موقعنا ، نحن المسلمين ، فى عصرنا هذا ، فلابدّ من أنْ يكون قُطْبا السُّؤال واضِحَيْن فى ذِهْنِ المُخاطَب . بالضَّمير «نَحْنُ» أعنى فى هذا المقام نحن المسلمين ، مع التأكيد على ملاحظة أنّنا كنّا ذات يوم أصحاب حضارة ، وكان لنا دور فى التّاريخ الإنسانى ، وأنّنا اليوم نفتقر إلى الاثنين : الدور والموقع معاً ، ونريد فى الوقت نفسه استعادة موقعنا فى التّاريخ ، وأنْ نصنع ، ما وسعنا ذلك ، مُسْتقبلاً لنا يختلف عن واقعنا ، بل وعن ماضينا أيضاً ، دون أنْ يُؤذى ذلك أحداً ودون أنْ نتجاهل معطيات المعرفة وإنجازات الفكر الإنسانى النَّظرية والتَّجريبية .

وأمّا ما أعنيه بقولى «عالم اليوم» فهو باختصار «حضارة الغرب» أى ما يسود العالم والإنسان ، ويُحْكِمُ السَّيطرة عليهما معاً . إنَّه ما يترك أثره القوىّ على حياتنا فى سائر سُبُلها الاقتصادية والسياسية والثقافية والاجتماعية فى آن معاً . إنَّه هذا الذى لاتَتَيَسَّر بدون ما قدّم وأنجز ، لاتَتَيَسّر الحياة لغير الغربيين ،

ولنضرب مثلاً قريباً : ففى هذا المكان الذى يَضُمُّنا ونتباحث فيه تتجلّى آثار المدنية الغربية أنّى التفتنا : فى تصميم البناء وفى أثاثه ورياشه وفى المدينة حيث يقع هذا المبنى وفى وسائل الاتصال وخاصّة وسائل الإعلام ، بل وفى هذا المذياع الذى ينقل صوتى إليكم وفى أمور أخرى عديدة لا سبيل لتعدادها .

وعالم اليوم هو عالم الغرب ؛ الفكرىّ والأخلاقىّ والفنّىّ ، وليس مُقْتَصَرًا على الموقع الجغرافى وحده ، ذلك أنَّ مَنْ هُمْ خارج المساحة الجغرافية وخارج إطار الحضارة الغربية ، حتّى هؤلاء يقعون ، وبشدّة ، تحت تأثير هذه الحضارة ، ولا تَتَيَسّر حياتهم من دونها . إنّه عالمنا المعاصر . وليس خفيّاً أنَّ الغَرْبَ قد قَدَّمَ للإنسان إنجازات وثمارًا عظيمةً وابتلاه فى الوقت عينه بمشكلات ومعضلاتٍ جمّة ، بَيْدَ أنَّ هذا هو شأن كلّ ظاهرة بشرية ، يتّسع مداه أو يضيق .

ولكن ثمّة ملاحظة جديرة بالاهتمام وخلاصتها أنَّ مشاكلنا بالمقارنة مع مشاكل الغربيّين تبدو مضاعفة ، فما سرُّ ذلك ؟

السِّرُّ هو فى أنَّ ثقافة الغربى منسجمة مع حضارته ، على الأقلّ ، وهو بالتالى لايُعانى من اهتزاز فى الشخصية . أمّا نحن فمشكلتنا مضاعفة لأن حياتنا ـ الشخصية والاجتماعية ـ متأثّرة أشدّ التأثّر بالغرب ، ومن دون أنْ نأخذ بأُسُس الحضارة الغربية . هذا من جهة . ومن جهة أخرى فإنَّ ثقافتنا أو بعض جوانب من السائد منها مِمّا يَرْسُمُ شخصيّتنا وأفكارنا ، تنتمى إلى حضارة انتهى

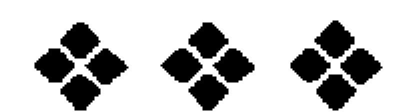
عصرها . على أنَّ هذا موضوع لن أفيض فيه لأنَّه أوسع من أن نخوض فيه فى مقامنا هذا ، ولذا فإننى أتركه إلى فرصة أخرى . ولكننى أبادر هنا لأضيف فورًا بأنّنا على رغم افتقارنا إلى تعريفات مُحَدَّدة لمقولات كالحضارة والثقافة ، فإنَّنى أعنى بالحضارة فى بحثى هذا الآثار المادّية للحياة الاجتماعية وجميع المراكز والمؤسَّسات التى تنبض بالحياة أى المؤسّسات الاقتصادية والسياسية والصناعية وغيرها ، والّتى تُشَكّل أُطُر الحياة العملية والاجتماعية ، وأعنى بالثقافة المعتقدات والعادات والتقاليد والتراث الفكرى والعاطفى الّذى تمتدّ جذوره فى المجتمع .

من المُمْكن أنْ يعتبر البعض أنَّ هذه الأزمة قد انتقلت إلينا أيضاً عن طريق تأثّرنا بالغرب . ولكن ، فى الحقيقة ، إنَّ أزمة الشعوب والبلدان غير الغربية تَكْمُنُ فى أنَّ الثقافة التى تحكمنا ، أو لنقل يحكمنا جانب منها ، لاتنسجم مع الحضارة التى تشكّل ، إلى حدٍّ ما ، أساس حياتنا العملية ، وأنَّ هذا التناقض الذى يُعانى منه الغرب بدرجة أقلّ هو ما يضاعف الأزمة فى حياة معظمنا نحن غير الغربيين .

وأُضيف أنَّ الفصل بين المَدَنيَّة والثقافة بالمعنى الّذى أشرتُ إليه أمرٌ ممكن ، يعنى أنَّه مِنَ المُمْكِنِ للثقافة المنسجمة مع الحضارة ، نظراً لامتداد جذورها فى ذات كُلِّ إنسان ، أنْ تبقى آثارها لمدى طويل بعد تدهور الحضارة واضمحلالها . وبما أنَّ الحضارة هى من الثقافة بمثابة القاعدة ، من جهات عديدة ، لذا فإن الثقافة ، ونتيجة

لهذا الفصل والانفكاك ، لا تفقد قدرتها على العطاء ، وتتحوّل إلى عقبة وعامل إعاقة وحسب بل وتضمحلّ أوّلا فأوّل لافتقارها إلى القاعدة والأساس .

بلى ، إنَّ إحدى أعظم مشكلاتنا هى فى أنَّ ثقافتنا أو الجوانب الهامّة منها ، تنتمى إلى حضارة قد غَبَرَ عصرُها منذ قرون ، وأنَّ حياتنا واقعة تحت تأثير حضارة جديدة تقتضى ثقافة تنسجم معها . هذا هو «عالمنا» .



نعود الآن إلى سؤالنا الأول فى بحثنا هذا فَنُكَرِّره بوضوح أكبر وصراحة أوفر : نحن كمسلمين نسعى إلى حياة كريمة ولا نُريدُ التَّخلّى عن هويّتنا التاريخية والّتى تعنى لنا الإسلام ؛ ماذا ينبغى علينا أن نفعل ؟

أرجو أنْ لاتنتظروا منّى أطروحةً ما ، فأنا أعترف بعجزى الفكرىِّ والعلمىِّ عن مِثْلِ ذلك ، ناهيك بأنَّ حياةَ الإنسان لا يتم إصلاحها بأطروحة . فمثلاً لقد كانت أطرحات «ماركس» «وأنجلز» هى الأكثر فاعلية ذات حين ، ولكنّكم قد وقفتم على النتيجة ، على رغم ما للرَّجلين من مزايا تُحمد . وماركس كان ، للإنصاف ، رجلاً ذكياً وفطناً وأحد أبرز الخبراء فى اكتشاف عُيوب رأسمالية الحضارة الغربية ، ولكن ، وعلى رغم ذلك ، فإنَّ نتيجة ما فعله بارزة للعيان .

فلنعترف بكلّ صدق بأنَّ الحياة إنْ هى إلاّ جهودٌ ومساعٍ عامّة

ومتواضعة ، ولا تَتَقَدَّم إلاَّ بالتّعاون وتضافر الجهود وتبادل الآراء وتلاقُح الأفكار ، وبالتذكير الدائم بمحدودية ما يطرحه الإنسان من آراء وأفكار ووجهات نظر . وبالطَّبع فإنَّ ما نثيره هنا لَيْسَ بأكثر من جُمْلَةِ تصوّرات وليس بالأمر الجازم والنهائى . إنَّ المطلوب إنَّما هو فتح الأبواب أمام البحث والحوار والمشاركة الواعية . وبالطبع الصادقة والمخلصة فى خضمّ الأسئلة والبحث عن أجوبة جادّة لها .

اسمحوا لى ، أوّل الأمر ، أنْ أُشير إلى بعض المُلاحظات عن «الدين» لكى نصل من ثمّ إلى ما نُسمّيه استنتاجاً :

أولاً : الدّين توأم الإنسان وأقْدَمُ الموجودات البشرية. وحياة الإنسان مِنْ غَيْرِ دين ومن دون التّسليم لأمرٍ مُتعالٍ وسام لا معنى لها. فالدين فى عُمْقِ وجود الإنسان ، شاء ذلك أم أبى ، هو علامةُ الغَيْب الذى لا نهاية له ، والإنسان يدرك ذلك من صميم قلبه ومِنْ أعماق روحه . الإنسان موجود يعى هذه الرموز والأسرارَ ولهذا فهو يُريد اكتشاف المزيد من أسرار الوجود ، وهيهات فَكَم من سرٍّ لم يكتشفه الإنسان بعد ؟ فالوجود مُعَقَّد ومُتَداخل على نَحْوٍ نرى معه أن اكتشاف كلّ سرّ من أسراره يؤدّى إلى استشراف المئات من الأسرار الجديدة . الإنسان يغوص واعياً فى بحر أسرار الوجود ورموزه ولذا فهو فريسة حَيْرة ودهشة دائمتين : الحَيْرة أمام الوجود والدهشة من تعقيداته وتداخله .

وعندى أنّ الحَيْرة ستظلّ ملازمة لوجود الإنسان ، وبوجودها تتأكّد أهمّيّة موقع الدين فى حياته . فالدين صِلَةٌ تَصِلُ الإنسان

الباحث الواعى ولكن المحدود والعاجز باللامتناهى ، بمركز الوجود ؛ خالق العالَم ، والعالِم العليم بكلّ الرموز والأسرار . وبالطّبع فإنّ إنساناً لايُؤْمن فى أعماقه بوجود أمرٍ متعالٍ ولامتناه ، لَيْسَ بموجود ، ولكنّ الإنسان نسّاءٌ يغفل عن الحَقيقةِ الساميةَ . والغفلة عن الوجود المتعالى والمتسامى تعدّ كارثة وفاجعة كما يعدّ النظر إلى المتناهى والمتغيّر ، كأنه ثابت ولامتناه ، كارثة أيضاً . والمؤسف حقّاً هو أن ما شَهِدَهُ تاريخ الإنسان من فجائع كان وليدَ هذين الموقفين .

إنّ حياةً تخلو من إله ، إله الأديان السّماوية بخاصَة وإله العارفين المُخْتَلف عن إله عَبَدَة الخرافة والسّطحيّين ، بل والمُخْتَلِف عن إله الفلاسفة أيضاً ، لحياةٌ ضيّقة مظلمة . إله فى الأوج من عزّته وجلاله وإنسان فى الحَضيض من عجزه وقصوره ، ومع هذا فبوسعه الارتباط به ارتباطاً صادقاً ومباشراً ، ارتباطاً قلبياً بل ولسانياً أيضاً . بوسعه ، فى عالم يستبدّ به الغموض والإبهام ويبعث فى النفس القلق والاضطراب ، بوسعه أن يتوجّه إلى مركز الوجود بالخطاب والنّجوى ، يُحادِثُهُ ويسمع جوابه . إله جميل يعشقه الإنسان ويتدلّه فى عشقه له . إله جليل يخافه الإنسان ويخشاه ، على أنّ الخشية منه ليست خشية الذّليل العاجز أمام القوىّ الجائر ، إنّما هى قلق الناقص السّاعى وراء الكمال أمام كامل وعزيز . الخشية أساس التقوى ، والتقوى إنْ صدقت كانت الزهد بعينه . والزّاهد الحقّ يرى الدنيا ملك يمينه ووسيلة تكمل أبعاد وجوده المعنوية والممتازة .

وبالطبع فلقد ابتُلينا ، وما زلنا ، بزهد سلبيّ وبعرفان سلبيّ وبتديّن سلبيّ وكل هذا من آفاتِ حياة الإنسان وعلامة بارزة تدلّ على ضيق أُفُق الإنسان وتهوّره وسرعته إلى الخطأ ، ولكن هذا أمر ينبغي درسه في أوانه وفي مكانه .

من الواضح أنَّ المُتَديِّن العارف المُتَفَلِّت من إسار الدنيا والقانع بالنزر الكافي من ضروريات الحياة المادية ، ينعم بالسكينة والغبطة بقدر أعظم وأعلى من الآخر المتمكّن والثريّ والقادر على كلّ قنية تُرفِّة عيشه ، وذلك لأن لذّة الأوّل هي لذّة ارتواء الروح وهي دائمة ، ولذّة الآخر هي لذّة إشباع الجوف والفرج ، وهي مُؤَقَّتة مُستعارة لأنّ أسبابها خارجة عن حيطة وجود الإنسان ومتعلّقة بمئات من العوامل الأخرى ، فإنَّ الخوف الدائم من فقدها والقلق لذلك يزيلان ما يستشعره المرء منها بالفعل .

بلى أيُّها السادة ، سنجد ، إنْ نَحْنُ نظَرْنا بموضوعيَّة وإنصاف ، أنَّ جذور التديّن تَضْرِبُ عميقًا في روح الإنسان ، أو على حدّ قول القرآن الكريم ، في فطرة الإنسان ، ففطرته دينية موحّدة .

ثانياً : جوهر الدّين أمر مُقَدّس متعالٍ ، ولو جُرّد الدين من القداسة والسموّ لخرج عن كونه ديناً . هذا من جهة ومن جهة أخرى فإنَّ وجود القداسة والسموّ إنَّما هو وجود للإطلاق ولانعدام الشُّروط والقيود . فما مِنْ دين لايتعامل بالأمر المُطْلَق والمُتسامي لأنَّ هذه الأمور هي من جوهر الدين . وهنا أودُّ الإشارة إلى واحدة من الآفات التي تُهَدِّدُ حياة الإنسان الدينية والتديّن على حدّ سواء ،

والّتى غدت ، على نحو ما وطوال التاريخ ، مصدر مشكلات كبيرة للبشرية .

قلب الإنسان يُحيط عِلماً بالأمر المقدّس المتعالى والّذى موضوع الدّين مادّته . فكلٌّ شخص يجد ويوجد فى أعماق وجدانه صِلَة ما بذلك الأمر ، وإنْ تكن تلك الصلة غير مفهومة ، ولكن المعرفة والإحاطة هذه هى فى ذاتها لَدليل على أنّ روح الإنسان وتلك الحقيقة السامية إنما هى من سنخ[1] واحد وهو ما أسماه القرآن الكريم بـ «روح الله» واعتبرت كمال خلق الإنسان .

بَيْدَ أنّ لوجود الإنسان بُعْدَين : إلهياً وطبيعياً . فالإنسان منتصب القامة فى السماء وبالتالى فهو يُدْرك الأمر القدسىّ ، ولكنّه فى الوقت عينه يقف على قدميه على الأرض فهو محكوم تالياً بالعيش فى هذا العالم . ولأنّه يعيش فى صلب الطبيعية فإنّ ذهنه وحياته فى تَحَوُّلٍ مستمرّ ، فعالَمُ الطبيعة لايعرف الاستقرار أبداً . ولأنّ الإنسان موجود طبيعى فهو محدود الزمان والمكان والاجتماع ، وبالتالى فإنّ معرفته ووعيه نسبيان وقابلان للخطأ .

الإنسان فى هذا العالم موجود تاريخى وأسير الزمان والمكان وقابل للتحوّل والتغيّر ، فلا جسمه يبقى على حال واحدة بمرور الزمان ، ولا عقله أيضاً . وبالطبع فإنّنى أعتقد بأنّ معارف الإنسان وأفكاره وإدراكه نسبية ، ولا ثابت فى معرفته ، بل أقول بأنّ مثل هذه المعارف وإنْ كانت أساسية إلاّ أنها عامّة جدّاً وضئيلة ، ناهيك

(١) أى من أصل واحد .

بأنّ مُعْظَمَ معرفتنا النظرية ووعينا العملى نسبىّ ومتغيرّ وقابل للخطأ .

إنَّ نسبيّة معتقداتنا ووعينا تكون أعظم جدّية فى زمان غياب المعصوم[1] وليس لدى الإنسان خيار آخر غير مواصلة حياته بهذه النِّسبيَّة . ومن خلال التجربة والخطأ يُصَحِّح معارفه وخبراته أيضاً فى الحياة وفى التاريخ . ولا يخفى أنَّ قسماً من تاريخ الإنسان إنَّما هو تَحَوّل معتقداته وتصوّراته ، فهل يبقى إدراك الإنسان على حال واحدة طوال التاريخ؟ وهل كانت معتقدات أيّة أُمّة وسلوكها الدينى على نمط واحد؟ إنَّ كلّ هذا الاختلاف فى الآراء بين أتباع الديانات وأصحاب الأفكار المختلفة عبر التاريخ ، بل كلّ الاختلافات الأساسية بين مذاهب الدين الواحد ، بل أيضاً كلّ التّعارض الفكرىّ بين فئات المذهب الواحد ، كلّها تدلّ على استحالة أنْ يدّعى أحدٌ الإحاطةَ بالحقيقة كاملة . ولنضرب الإسلام مثلاً . فأىُّ إسلام نريد ونعنى حين نتحدّث عن الإسلام؟ أ إسلام أبى ذر ؟ أم إسلام ابن سينا ؟ أو إسلام الغزالى ؟ أم إسلام محيى الدين بن عربى ؟ أ إسلام الأشاعرة ؟ أم إسلام المتصوّفة ؟ أم إسلام الظاهرية ؟ أى إسلام ؟ بلى إنَّها كُلُّها شواهد تاريخية لايطالعها الشكّ على نسبيَّة معرفة الإنسان حتّى عن الدين . إنّنا جميعاً كائناً ما كان الدين الّذى يؤمن به أحدنا ، لانتّفق مع آبائنا لا فى التفكير ولا فى العمل . على أنّنى لا أقول

---

(١) أى الإمام الغائب ـ فى عقائد الشيعة ..

بأن سنّة التغيّر تدرك كلّ شىء ، بل تدرك جلّ شؤون الوجود الإنسانى . ومن هنا فإنَّ نسبية العقل والحياة أمر جدّىّ وأساس .

وإذاً فإنَّ أعتى وأضخم مشكلات مجتمع المُتَدَيِّنين قائمة فى أنَّه يؤمن من جهة بحقيقة وحقائق مُطْلَقَة ومتسامية ومقدّسة ؛ ومن جهة أخرى وبوصفه موجوداً ، النسبية فى عقله وحياته أمر جدّىّ فإنَّه يرى كلّ هذا فى نطاق عقله وروحه النِّسبيَّين ، بَيْدَ أنَّه طالما يعى محدوديّته وأساس التضادّ القائم والمشكلة ، فإنَّ مشكلته الداخلية لن تفضى به إلى الكارثة .

ولكن الطامّة الكبرى والتى تؤدّى إلى الكارثة فى مجتمع المُتَدَيِّنين ، تظهر عندما تُضْفَى قداسةُ الدّين ومطلقيته على تصوّرات الإنسان عن الدين ، مع أنَّها تصوّرات زمانية ـ مكانية محدودة ونسبيّة وقابلةٌ للخطأ . ثمّ يعتقد الشخص أو الأشخاص المحدودون أنَّ ما توصّلوا إليه إنّما هو عَيْنُ الدّين والدِّيانة . بل ويُخَيَّل إليهم آنذاك أنَّ الشّخص الذى يعتقد الاعتقاد هذا لَهُوَ مثالُ المُتَدَيِّن الحقّ . ومن هُنا تَنْجُمُ أكثر حملات التكفير والرمى بالفسق والفجور فَضْلاً عن الصدام والعراك .

ها نحن أولاء إذاً والدين الّذى هو فى ذاته ذو «قداسة» و«سموّ» و«إطلاق» وبيننا أمر مشترك اسمه العقل ، والّذى هو وسيلةٌ لفهم هذا العالم ، ووسيلة للإفهام والتّفاهم بين الناس أيضاً . ولئن كنا نعتقد اعتقاد الكثير من الفلاسفة بأنّ عقل الإنسان يتحلّى بجملة من الثّوابت ومن القناعات المُطْلَقَة والّتى تكون معتبرة دائماً وفى

كلّ آن ، فمن الإنصاف الاعتراف بأنَّ الإنسان ، فى عقلانيّته وفى إيجاده لمعضلاته بواسطة العقل ، مُبْتَلىً بأنّه محدود إلى درجة أنَّ جانباً عظيماً من معارفه وتصوّراته ومعلوماته ، وبسبب من تأثره بما لايُحصى من المعوّقات ، لَتصوّراتٌ ومعارفُ نسبية وعرضة للخطأ . وما التحوّلُ العظيم الذى يطرأ على عقولنا وحياتنا لحظةً فلحظة ، واختلافُ الآراء وتباين الأفكار والرؤى القائم بين اتباع الديانات المختلفة وبين مذاهب الدين الواحد أيضاً ، هذا التحوّل ليس إلاّ الشاهد الناطق الذى يشهد على صحّة ما ندَّعيه . ومن الإنصاف أيضاً الاعتراف بأنَّ وسيلتنا المشتركة والمباركة فى الوقت نفسه للعودة إلى الوجود والطبيعة ، والّتى هى كتاب الخلق والتكوين ، من جهة ، وإلى الوحى الإلهىّ ، والّذى هو كتاب الديانة والتشريع ، من جهة أخرى ، إنَّما هى العقل مع إدراك أنَّ الفهم الإنسانى فهم محدود ومتغيّر .

أَوَيَعنى هذا أنَّ جميع أبواب الحقيقة موصدة أمام عقل الإنسان؟ نَحْنُ نعلم أنَّ بعض فلاسفة العصر الحديث فى الغرب قد أجابوا عن هذا السؤال بالإيجاب ، فهم إمّا أنكروا الحقيقة المطلقة أو أعلنوا ، فى أحسن الأحوال ، أنّهم لايعرفون إليها سبيلاً ، وبالتّالى توصّل أكثر المفكّرين الغربيين إلى هذه النتيجة بشأن الدين ، وهى حتمية وضعه بالكامل جانباً أو على الأقلّ نبذه من الحياة الاجتماعية .

بلى ، ها نحن أولاء والعقل الذى هو محدود وعُرْضَةٌ للخطأ ،

والّذى لم يوجد معنى محدَّدٌ له ولا مفهوم واحد ، لا فى القديم ولا الآن ، الأمر الّذى لا بدّ من التنبّه له .

ولكن كَيْفَ يُقنع هذا الكلامُ مُتَدَيِّنًا يُؤْمِنُ من صميم روحه بإله قادر حكيم ؟ نحن نعتقد أنَّه من غير الممكن أنْ يدعو اللّه عزّ وجل عباده إلى دين ما ، من دون أنْ يكون هناك سبيل لبلوغ حقيقته . أنْ يدعو إنسانٌ إنسانًا إلى مكان لايمكن بلوغه فذلك أمرٌ مُسْتَهْجَنٌ وقبيح ، فكيف بالحرى إذا ما كان الداعى إلهًا نَصِفُهُ بالحكمة وبأنه مبدع العقل ؟

السّبيل المطمئن لمعرفة اللّه عزّ وجلّ، عندى، هو طريق الوصول لا الفهم؛ وطريقُ القلب لا العقل[1] ، هو الطريقُ الذى أكّدته الأديان بقوّة . ولقد علّمنا أئمّة الإسلام بأنَّ «العَقْل ما عُبِدَ به الرحمنُ واكتُسبَ به الجنان» وهذا يعنى أنَّ العقل هنا هو مصدر عبادة لا مصدر فهم . وفى قول آخر رأوا العبادة سبيلاً إلى اليقين وليس الانتقال من المقدّمات المعلومة إلى النتيجة المجهولة ، ودليل هذا ما جاء فى القرآن الكريم ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩) ﴾ [الحجر : ٩٩] وهذا يعنى أنَّ الطريق المطلوب للمعرفة الدينية الإلهية هو طريق الوصول لا الفهم ، وهذا بطبيعة الحال لا يعنى ، بأىِّ وَجْه ، التّنكّر لقوّة العقل والمعرفة الفلسفية والعملية ، وخاصّة فى الإسلام الّذى اهتمّ ، إلى حدّ بعيد ، بالعقل وبالتدبّر . ولكنْ

---

(١) هذا هو المذهب العرفانى ، الذى يعتمد ويقدم القلب على العقل ، ويرى المعرفة هبة وإلهاما أكثر من كونها ثمرة للعقل أو النقل .

لابدّ من معرفة حدود كلّ بعد من أبعاد روح الإنسان ومن أراد أن يكون مؤمناً صادقاً فلابُدَّ له من سلوك طريق القلب .

حقيقة التديّن تجربة وليست فكرًا . إنّها تجربة عناصرها بناءُ الذات والتَّحكُّم بهوى النَّفس والتَّسليم لمركز الوجود ذى العزّة والجلال وفناء القلب فى حبّ المحبوب . وإذا ما سلك الإنسان هذا السبيل وطواه وَصَلَ إلى اللّه . والوصول ليس مُفْرَدَةً من مفردات الفهم ، لأنَّ الفهم شأنٌ من شؤون العقل ، فمن خلال تجميع المفاهيم المعلومة يتم التوصّل إلى المفهوم المجهول . على أنَّ الفهم فى الغالب أمرٌ نسبىٌ يتناسب وأوضاع العقل والموقع ، زماناً ومكاناً ، فضلاً عن عوامل داخلية وخارجية أُخرى لا تُعَدُّ ولا تُحصى .

ليس ما قلناه بالأمر الجديد ؛ فالكثير من النّصوص الدينية التعليمية ، فضلاً عن أن عِظامَ العارفين قد شهدوا جميعاً بعجز العقل وضعفه وأكّدوا أنَّ أقدامَ أهْل الاستدلال ، أى الفلاسفة ، من خشب ، ومعلوم أنَّ قَدَمًا من خشب لأوهى من أنْ تُقاوم ، وهم بذلك تجاوزوا العقل فى بحثهم عن الحقيقة وهاموا فى البحث عن عقل العقل ، وهنا تَرِدُ ملاحظة كبيرة الأهميّة وخلاصتها أنَّ عظماء كأبى على ابن سينا وكثيرًا من الفلاسفة الذين استندوا إلى العقل بقوّة فى نشاطهم ، واعتبروا أنَّ المعرفة الصحيحة هى المعرفة العقلية والاستدلالية ، هؤلاء العظام لم يزعموا ، فى أىّ وقت ، أنَّ بوسعهم التوصُّل بواسطة العقل إلى إدراك الحقيقة والحقّ

والمتعالى . إنَّ هذا العقل يُحَقِّقُ إنجازاً كبيرًا إنْ هو أمكنه إيصالنا إلى حدود الحقيقة لا كنهها .

طريق القلب طريق يوصلنا إلى الحقيقة . وحقيقة الدين تجربة يُمارسها الإنسان المتديِّن من أعماق روحه وصميم فؤاده ، وكم من الفلاسفة العرفانيّين ، وكَمْ من العرفانيين النظريّين قد حاولوا تبيان الجهة المعقولة لهذا السير وهذا السلوك ، ولكن هيهات فالطريق طريق وصول لا طريق فهم .

والملاحظة المهمّة فى هذا المجال هى أن السّالك الواصِل هو وحده الذى يُدرك الحقيقة عن طريق القلب ، الطريق المطمئنّ لبلوغ الحقيقة ؛ وبتعبير آخر ، إنَّ طريق القلب طريقٌ فرديٌ وليس طريقًا جماعياً ، ولابُدَّ لكلّ شخص من سلوكه بِنَفْسِهِ حتّى يصل ، فإذا ما وَصَلَ لم يَسَعْهُ نقل حقيقة وعيه الّذى هو من سنخ الشهود بالمفاهيم والمعرفة المكتسبة .

ولكنَّ الإنسانَ ، من جهة أخرى ، كائنٌ اجتماعى مضطرّ للحياة على الأرض بجوار الآخرين . ومثل هذا الوجود يحتاج وسيلة يُشاركه فيها الآخرون ، فتُتيح له إمكانية الاتّصال والارتباط بهم . فاللغة عنصر مهمّ فى ارتباط الناس ، بعضهم ببعض ، واللغة أداة تُعَبِّر عن حقيقة معنوية موجودة فى ذهن الإنسان . فالإنسان يتمتّع بالفهم والوعى ، وفهمه ووعيه وانطباعاته وأحاسيسه هى من جملة الأمور التى ينقلها إلى الآخرين بواسطة اللغة وبها يطلعهم على ما يدور فى خلده ويعتمل فى نفسه .

النُّطق مؤشّر العقلانية ، وأعنى بالعقل هنا القوّة المشتركة بين جميع الناس والمرتبطة بالمفاهيم ؛ فبالعقل يتمّ الفهم . ثُمَّ إنَّ فهم الإنسان هو الّذى يربط بين العقل وموضوع المعرفة . وهذا الفهم تابع ـ إن لم يكن دائماً وفى كلّ وقت ففى معظم الحالات ـ للكثير من الظروف والأحوال الخارجة عن نطاق إرادة الإنسان ووجوده . ورغم أن الإنسان من حيث الاستعداد كائن لامتناه ـ والحقّ أنَّ عظمة وجود الإنسان عصية على البيان بمعايير المادّة والطبيعة المجردة ـ فإنه موجود ومحدود دائمًا بحدود الزمان والمكان ، وبالتّالى فإنَّ آفاق رؤيته ضيِّقة . إنه موجود يتأثّر بأنواع الأحاسيس والعواطف ، ولايُمكن لعقلانيته أنْ لا تتأثّر بميوله وتوجّهاته العاطفية . وكلّ هذا يستدعى كون عامل الفهم والارتباط المشترك بين الناس أمرًا نسبياً ، فى معظم الحالات ، وعرضة للخطأ فى الكثير من المواضيع . والتحوّل الّذى تشهده تصوّرات الإنسان فى كلّ الأبعاد تقريباً لَشاهدٌ ناطقٌ ، فى حدّ ذاته ، على صحَّة ما أذهب إليه ، ولا أحسبَ أنَّ ثمَة مَنْ يرفض ذلك كلّياً .

الإنسان ، على ما يبدو إذاً ، يحمل فى أعماق وجوده ما يدُلُّ على عالَم أسمى ، ولكنّه ، وعلى أيّة حال ، يعيشُ فى هذا العالم بكلّ صفاته وحدوده ، ويمتلك وسيلة اسمها العقل يتلخّص عملها فى فهم هذا العالَم . وبالطبع فإنَّ فهم العالَم ، شأنُه شأنُ العالَم نَفْسه ، غيرُ ثابت ومتغيّرٌ وعرضَةٌ للخطأ . وَلا مفرَّ للإنسان من تَوَسُّلَ هذه الوسيلةَ التى منحه إيّاها خالقه ما دام حيّاً وموجوداً يعيش وسط الجماعة .

والإنسان بواسطة العقل يتناول بالفهم والدراسة الكتابَيْن معاً : كتاب الوجود والطبيعة الّذى هو كتاب الخلق والتكوين ، وكتاب الوحى والشريعة وهو كتاب التشريع والدين .

بلى ، إنَّ بوسع الإنسان الاتّصال بمبدأ الوجود وبحقيقة الدين ، عن طريق القلب ومن خلال تجربة عملية وسلوكية . فدين كلّ شخص إنّما هو تجربة ذاتية تتحقق إثر الاتِّصال الوجودىّ بالمبدأ أيضا بَيْدَ أنَّنا ، وبوصفنا كائنات عاقلة ومختارة تحيا فى هذا العالم وتعيش فى قلب الجماعة ، فإنّ وسيلتنا المشتركة هى فهمنا الناتج عن قوانا العقلية المشتركة ، فنحن نفهم الدين كما نفهم الطبيعة ؛ وعلى أساس فهمنا نُكَوِّن العلاقة مع الآخرين . ولكن ، ومهما كان فهمنا ثابت البنيان ، فإن أُسُسَهُ نسبية وعرضة للتغيّر .

وهنا بالضَّبط تنجلى أمامنا واحدة هى أهمّ وأبرز مشكلات مجتمعات المُتَدَيِّنين ، وخلاصتها أنَّ الكثير من المتديّنين ينقلون القداسة والإطلاق والسمو ، والتى هى صفات جوهر الدين وحقيقته ، ينقلونها إلى تصوّراتهم النسبية والمحدودة ، وإلى فهمهم عن الدين ، وهو فهم محدود بالزمان والمكان ، حتّى إذا ما عجزت تصوّراتهم السابقة ، بسبب من مرور الوقت والتحوّلات الطارئة على عقل الإنسان وحياته ، عن الإجابة عن تساؤلاتهم ، فإنَّهم بدلاً من التخلّى عن تصوّرهم المحدود ، وإزاحة السِّتار عن كيان الحقيقة والعودة إلى مصادر الدين الفكرية والأخلاقية ، للنظر فيها بعيون جديدة ، لتحصيل تصوّر جديد عن الدين أكثر تكاملاً وأشدّ

فاعلية ، إنّهم بدلاً من ذلك يُحاولون ، وبأىّ ثمن ، فرض تصوّرهم الناقص على الواقع ، الأمر الّذى لا يدوم على المدى البعيد ، ولكنّه يفضى إلى كارثة على المدى القريب لا محالة . فنظرة إنسان اليوم إلى عالَم الطبيعة تتباين تباينًا عميقًا مع نظرة إنسان الأمس إلى ذلك العالَم . وفى الماضى ، وكما هو معلوم ، جرت محاولة إضفاء هالة القداسة حتّى على علوم الطبيعة وعلى تصوّرات البشر للطبيعة ، وقد حَدَثَ أنْ تمَّ الاعتراف رسمياً بتصوّر الكنيسة أو بعض المؤسّسات الدينية الأخرى للطبيعة ، دون أن يجدَّ جديد أو يُبْتَكر أىُّ شىء فى هذا المجال لمدّة قرون ، ومن ذا لايعلم بمعاناة العلماء والمفكّرين فى هذا المضمار نتيجة ما مورس عليهم من ضغوط . ولكنّها نظرة كانت وتغيّرت شيئاً فشيئاً وصار من النادر أنْ يوجد فى أوساط المسيحيّين والمسلمين وأتباع الديانات الأخرى مَنْ يعتقد بأنّ «الوحى» و«الكتاب السماوى» قد حَدَّد واجب الإنسان تجاه ظواهر الطبيعة أيضاً . الجميع الآن يؤمنون ، على نحو ما ، بضرورةاستخدام العقل والعلم للتعرّف على أسرار الكون والطبيعة ؛ وضرورة التوصّل إلى نظرية تحظى بالثقة الكافية للإجابة على التّساؤلات ، ولتلبية الحاجات . وإنَّ هذه النظرية مُعَرّضة دائماً للتعديل والحذف والإبطال . ومثل هذه الرؤية والحكم ليسا بالمقبولين فى مجالى العلوم الإنسانية والاجتماعية ، ولكن ينبغى بالطبع التمييز بين البحوث العقلية الصِّرف ، والموضوعات التجريبية . فالكثير من الفلاسفة والمفكّرين يعتقدون بوجود أصول

عامّة وثابتة فى مجال العلوم العقلية ، إلا أنَّ العلوم العقلية والإنسانية لاتقتصر على هذا العدد من الأصول الكلّية ، بل إنَّ تصوّرات الإنسان العقلية فى الأساس إنّما هى مواضيع نظرية يتمّ استنباطها واستنتاجها من مواضيع نظرية أُخرى ، أو من أمور بدهية ونظرية أحياناً ، ومن خلال هذه الاستنباطات والاستنتاجات النسبية والمحدودة والخاطئة نفسها تَتَّضِحُ حقيقتها . وخلاصة القول أنَّ تصوّرات الإنسان عن الطبيعة وعن الدين قابلة للتغيّر والتحوّل ، طالما أنَّها شأن بشرىّ «لاطبيعىّ» فى جوهره و«لادينىّ» .

والإنسان ، حين ينظر فى كتاب الطبيعة أو يتأمّل فى كتاب الشريعة ، أى حين ينكبّ على دراسة «الكون» و«الوحى» ، فإنّه يستمدّ النظر والدراسة من عقله وقوّة فهمه ؛ وما فهمه إلاّ ما يتصوّره عن هذين المصدَرَيْن . وتصوّره هذا تصوّر إنسان للحقيقة محدود ونسبىٌّ ، وكما أنَّ تحوّل رؤية الإنسان للطبيعة ومعرفته بها لا يُغيّران فى واقعها شيئاً ، فإنَّ تحوّل نظرة الإنسان إلى الدين وتغيّرها لايُوَجِّهُ لطمة إلى حقيقة جوهر الدين ولا إلى قدسيّته وسموّه ، بل إنَّ الضَّرر والأذى يلحقان بجوهر الدين عندما يتصوّر الإنسان ـ أيّاً كان ـ أنَّ ما يتصوّره عن الدّين هو الدين بعينه لأن هذا يعنى خنق كل رؤية أو فكرة أو نظرة أخرى . ومَنْ ذا لم تبلغ مسامعه أخبار حملات التكفير والرمى بالفسق والاصطدامات والحروب الّتى شغلت مسرح التاريخ ، وكانت كلُّها ابنة هذا الخطأ المميت . وكان

المُصاب الأوّلُ فى هذه المعمعة هو الإنسان ، فلقد عُطِّل ذهنه الفاعل المتوقّد أمام الحقيقة ، ناهيك بإصابة الدين أيضاً ، وذلك لأنَّ الفكر ، وعلى أثر تحريره بُعَيْدَ زمان الاضطهاد أيّام كان تصوّر الدين يظهره فى لبوس ضيّق وهيئة قاتمة مظلمة ، قد أساء الظنّ بأصل الدين .

نصل الآن باعتبار ما تقدّم كلّه ، والّذى كان فى الواقع مقدّمة للبحث ، إلى الملاحظة التالية ، والّتى هى بمثابة استنتاج من البحث :

تَتَلَخَّص خدمة الدين فى عصرنا فى التمييز ، بشجاعة ، بَيْنَ جوهر الدين كشأنٍ مقدّس ومتسام ، وبين تصوّرات الإنسان عنه ، والّتى هى أمرٌ محدود ونسبىّ ويدركها التغيّر . وبذا تظلّ للدين منزلته المقدّسة فى أعماق أفئدة المؤمنين ، وتفتح ، من جهة أخرى ، آفاق التحوّل الإيجابى فى الفكر الدينى .

وبملاحظة واعتبار ما وُجِدَ من تصوّرات عن الدين ، متباينة بل ومتعارضة أحياناً فيما سلف من الزمان ، وبالنظر إلى ما كان من اختلاف بين تصوّر أهل العرفان والفلاسفة وأهل الحديث والظاهرية ، فإنّنى آمل ألاّ نَحْسب أنَّ ما توصّلنا إليه هو حقيقة الدين . المهمّ هو أنْ تكون عودتُنا المتواصلة والدائمة إلى المصادر الدينية عودةً تأخذ بالأسلوب الصّحيح والعلمى والمنطقى ، وتسلك طريقاً محدّداً ومجرّباً . وذلك لأن الأساليب والسُّبل تتحوّل وتتكامل مثل أىِّ شأن إنسانىٍّ آخرَ . وصحيح أنَّ الدين شأنٌ

مقدّس ، ولكن لابدَّ من القبول بحقيقة أنَّ تصوّرنا له موضوعٌ بشريٌّ دائماً . وحينئذ ، وهذا أمر مهمّ ، يُخَفِّفُ الإنسان من غلوائه ويتواضع ويفتح أحضانه دائماً لكلِّ إبداع ، وللاستفادة من تجارب الآخرين الفكرية والمدنية .

وحالتئذ يمكنه ، بل وينبغي عليه ، أنْ يكون فهمه أكثر حيوية وفاعلية بما يتناسب والتّساؤلات والاحتياطات الّتى تَتَجَدّد لحظةً فلحظة ، تلك التساؤلات والاحتياطات الّتى يرتبط مصير حياة الإنسان بالإجابة عنها . وكما أسلفت ، فإنّه لايمكن ، بالطّبع ، اعتبار كلّ تصوّر لا أساس له تصوّرًا دينياً مؤكّداً ، كما أنّه لايمكن اعتبار تصوّر أىّ شخص كان ، عن الطبيعة ، كما يحلو له ، عِلْماً من علوم الفيزياء أو علوم الطبيعة .

إنَّ التصوّر الدّينىّ الموثوق به ، مثله مثل أىّ تصوّر علمىّ ومنطقىّ ، رهينٌ بتمسّكه بمصادر الفكر الدينيّ ، وبالقرآن الكريم بخاصّة فيما يعنينا نحن المسلمين ، ومنوطٌ أيضا بالإحاطة بالأساليب المدروسة لاكتساب المعرفة والاستفادة منها . ومن ثمّ ، وبعد اجتياز هذه المراحل ، تبقى المعرفة الّتى نكتسبها تعبيراً عن تصوّرنا للدين ، وهُنا يتجلّى خلوده ، فهو لاينحصر ولايقتصر وليس وَقْفاً على تصوّر محدود بزمان ومكان بعينهما .

إنّ من شأن رؤية كهذه الرؤية أن تفتح السُّبُل أمام التحوّل فى كافّة شؤون حياة المتديّنين ، من دون أنْ يعمل أصحاب الفكر المنحرف على تضييق المجال أمام الفكر باسم الدين ، ومن غير أن تلحق أذىً بحقيقة الدين وقدسيّته وسموّ جوهره .

من جهة أُخرى فإنّ تصوّر الدين ، الحيّ والفاعل ، منوط بالحضور وبخوض معترك الحياة فى هذا العصر . والحضور فى عالم اليوم لا يَتَيَسّر من دون معرفة دقيقة بأهمّ حوادث العصر واكتشاف أمثل الطرق للتعامل معها ، وفى الوقت ذاته المحافظة على الهويّة التاريخية ـ الثقافية . وفى يقينى أنّ الحضارة الغربية هى الحدث البارز فى عصرنا ، على رغم أنّ الغرب يفتقر إلى واجهة سياسية مقبولة بالنسبة لنا . فمن النّادر أنْ تجد شعباً أو بلداً غَيْرَ غربىٍّ لم تُلْهِب ظهرَهُ سياطُ ظلم الغرب السياسى والاقتصادى ، سواء فى صورته الاستعمارية القديمة أم عبر نزعة التَّسلّط المعاصرة الّتى تركبه وتسيطر عليه . بَيْدَ أنّ الغَرْب السّياسىّ ـ الاقتصادىّ ليس إلاّ وجهاً من وجوه الغرب ، فالغرب بأجمعه هو حضارة ذات ثقافة خاصّة ، وهذه الحضارة وهذه الثقافة قامتا على مبادئ فكرية وقِيَمية خاصّة ، ومن دون التعرّف عليها والإحاطة بها ، تبقى معرفتنا بالغرب معرفة سطحية وظاهرية ومضلّلة .

لابدّ لنا فى مرحلة المعرفة من النَّظر إلى الغرب نظرة محايدة لا تشوبها العواطف ، إن جازت العبارة ، لنتعرّف عليه ولنقف على أبعاده ، وآنذاك **ينبغى علينا التنبّه واليقظة لدرء أخطاره من جهة، وللاستفادة من إنجازاته ومعطياته الإنسانية من جهة أُخرى. وكلّ هذا ممكن إذا ما نضجنا فكرياً وتاريخياً. ففى ظلّ ذلك تتوافر لدينا القدرة على التشخيص والانتقاء، ويتوافر قبولنا بمسئولية انتقائنا واختيارنا .**

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

التراث.. والحداثة.. والتنمية

بسم الله الرحمن الرحيم

التراث ، الحداثة ، والتنمية ، مصطلحات ثلاثة ، تَدَبُّرُ دلالاتها والتأمّل فى ترابطها بعضها ببعض همٌّ أوّل من هموم هذا العصر فى البلدان غير الغربية بخاصّة .

قد نُقنع أنفسنا بتشخيص أوّلىٍّ - سطحىٍّ بطبيعة الحال - لتلك المفاهيم فنقول إنّ الحداثة (Modernity) كموضوع غربى قد شقّت طريقها باختراق التراث أو التقليد (Tradition) ومحاربته ، وإنّ التنمية ، كحصيلة للحداثة أو كرديف لها ، بمثابة هدف استراتيجى للبلدان الّتى تقع خارج دائرة النظام الفكرى والحياتى الغربى . ومن هذه المُقَدِّمات الأوّلية يمكن استنتاج النتيجة السطحية التالية : علينا الالتزام بالحداثة لكى نحقّق التنمية ، والحداثة لا تَتَحَقَّق إلاّ بمحاربة التقليد والتراث .

ولكنّ هذا التشخيص ، وما يترتّب عليه من استنتاج ، لا يعدو كونه كتلة من التوهّم بعيدةً عن الواقع ، ولا يسعها إلاّ إرضاء أهل الأفكار القاصرة والعاجزة وغير المسئولة تجاه الإنسان ومصيره ،

■ محاضرة ألقيت فى كلية الحقوق والعلوم السياسية والإدارية - الجامعة اللبنانية فى الخامس من ديسمبر ١٩٩٦ .

وذلك لأنَّ المسألة أعقد من أن تُحَلَّ بهذا اليسر الساذج ، فلا التَّقليد يُغَيّره التمنّى والأحكام الواهمة ، ولا الحداثة تَتَحَقَّق بسهولة ، فما لم يتغيّر الأفراد فلن يطرأ على حياتهم الاجتماعية أىَّ تحوّل مصيرىّ ؛ لأنَّ التغيير عملية شائكة جدّاً ، ويبدو أنَّ كلّ عناصرها ليست طوع إرادة الإنسان .

ولئن استطاع بحثنا هذا شَقَّ كوّة ، ولو صغيرة ، تنفتح على الأفق المنير نكونُ أدَّينا بعض ما علينا .

إنَّ المصطلحات ، مِنْ قبيل التّراث والحداثة والتنمية ، مُصطلحات غامضة ومُعَقَّدة ولا تُعرَّف تعريفاً مُحَدّداً ومُتَّفقاً عليه . ناهيكَ بأنَّ هذا الغموض الناتج عن فهم متباين وعن مقدّمات فكرية مختلفة واهتمامات لدى الباحثين متباينة ، والناتج ، على مستوى آخر ، عن اختلاف آفاق الرؤية الّتى ينحو إليها كلّ بحث ـ هذا الغموض قد غدا مصدراً لسوء فهم كبير أيضاً . من ثم فإنَّ على الباحث فى هذا الموضوع أن يعمل أوّل الأمر على الخروج من دائرة « سوء الفهم » الّتى تسبح فيها هذه المصطلحات ، وذلك من خلال إيضاح فهمه لها ، ولذا سأحاول جلاء مبادئ فهمى لموضوع البحث كخطوة أولى .

ماذا أفهم من الحداثة والتراث ؟

لا ريب فى أنّنا نعنى ، عند الكلام عن الحداثة ، ظاهرة أو منظومة من الظواهر الجديدة ، ولكنْ هل يُمْكن اعتبار كلّ ظاهرة جديدة

فى حياة الإنسان حداثة ؟ أم أنّ الحداثة سِمَة معينة لعصر أو لفترة تاريخية ما ؟

المجتمع البشرى ـ حتّى فى أبسط صوره ـ عرضة دائماً للتحوّل والتغيّر . فالظواهر الجديدة تحلّ محلّ الظواهر القديمة فى نظام حياة الإنسان . والفارق الجوهرىّ بين العالم القديم والعالم الجديد ليس فى الثبات المطلق للأوّل والتغيّر المطلق للثانى ، بل فى بطء حركة التغيّر فى الأوّل وجموح سرعتها فى الثانى على أنّنا لا نطلق وصف « حداثة » على كلّ تحوّل أو ظاهرة جديدة تبرز فى المجتمع ، وإن تكن أساسية وباهرة .

وفى تصوّرى أنّ الحداثة لفظ يُراد به التّحوّلات الّتى جرت فى الغرب فى العصر الأخير من تاريخ الإنسان ، وبالتالى يمكن القول بتعبير أدقّ ، إنّ الحداثة روح الحضارة الجديدة والثقافة المنسجمة معها . وبصرف النظر عن البحث الشائك فى ما بين الحضارة والثقافة من علاقة ، باعتبارهما وَجْهيْن لحقيقة واحدة أو أمرين يرتبط واحدهما بالآخر ، فمن المُسَلَّم به أنّ كلّ ثقافة تنسجم مع حضارة معيّنة . ونحن نعلم أنّ الحضارة الحديثة قد قامت على أنقاض الحضارة الّتى سبقتها ، ومن الطبيعىّ أن تُرَوِّج لثقافة تنسجم معها ، وفى العصر الحديث ظهرت ثقافة جديدة تَتَّسِق والحضارة الجديدة فَحَلَّت محلّ الثقافة السابقة والحداثة هى روح هذه الحضارة وهذه الثقافة .

ماذا الآن عن التراث أو التقليد ؟

التراث ، فى الإجمال ، أمر يتعامل مع الماضى أو القديم . بيد أنَّه لا يَصِحّ نعت كلّ قديم بأنَّه تراث . ففى المُصْطَلَح دلالة على السُّنَنِ الإلهية والطبيعية ونظائرها . والّذى يؤمن بالسُّنَّةِ الإلهية أو الطبيعية يعتبرها ثابتة ، وعليه فإن هذه السُّنَن تحكى ، بحدّ ذاتها ، عن أمور ثابتة كلّما وُجِدَتْ وُجِدَتِ السُّنَّةُ أيضاً ، والقوانين الّتى تحكم الوجود هى سُنّة إلهية أو طبيعية .

ومن المُمْكن أن يُخطىء الإنسان فى اكتشاف هذه النَّواميس ، ويدرك ذلك الخطأ فيما بعد . وهذا يعنى أنَّ الّذى يتغيّر هنا ليس أصل القانون بل فهم الإنسان وتصوّره له . فنحن وإن آمنّا بمبدأ التغيّر وعدم الثبات فى طبيعة العالم ، كما آمن صدر المتألّهين الشيرازى ، وهو أحد كبار فلاسفة الإسلام ، الّذى قال بـ « الحركة الجوهرية » ، أو اعتقدنا اعتقاد الماركسية الّتى ترى أنَّ العالم يحمل فى ذاته تضاداً ، فتكون بالطبع الحركة والتحوّل صفة ذاتية ودائمة للعالم ، إلاّ أنّنا نتّفق جميعنا على أنّ مبدأ التغيّر سنّة ثابتة غير متغيّرة .

ولكن ، ما من شكّ فى أنّ المُراد بالتقاليد أو التراث ، فى مقابل التَّجديد أو الحداثة ليس كلّ أمر قديم ، فالنّاس قد أذعنوا عملياً لسلْسلَة من الأمور الثابتة والقديمَة فى جوانب من حياتهم دون أن يَتّهمهم أحدٌ بالتقليد أو بالماضوية .

فما المقصود إذاً بالتراث أو التقليد ؟

التَّقليد ، فى تصورى شأنٌ إنسانىٌ له علاقة بفهم الإنسان

الفكرى والعاطفى ، وبتعبير آخر : إنَّه عبارة عن الضابط والسُّلوك المتعارف عليه فى المجتمع والمتّصل بالماضى ، والتَّقليد وفق هذا المعنى يَتَّفِقُ والسِّنخية ويُعَدُّ فى أحيان كثيرة مظهراً لها . بَيْدَ أنَّنا لا يمكن لنا أن نَصِفَ كلَّ ثقافة بأنَّها تقليد أو بأنَّها تقليدية . فالتَّقليد هو عبارة عن الثقافة الموجودة فى مجتمع امتلك ذات يوم حضارة ، ثمّ بادت تلك الحضارة وبقيت ثقافتها ، أو آثارها البارزة على الأقلّ .

والّذى أعنيه بالحضارة ليس بالضرورة صورتها المعقّدة أو الراقية أو المتطورّة ، بل النمط الخاصّ للمعيشة[1] بالمعنى العامّ للكلمة . وهذا النمط هو حصيلة إيجاد علاقة خاصّة مع الوجود ، ويتجلّى فى الإجابة عن التّساؤلات ، وفى تلبية الحاجات التى تظهر إلى الوجود بوحى من هذه العلاقة . وبناء على هذا المعنى فإنّ للبدو أيضاً حضارة من نوع ما ، كما كان الإنسان منذ أنْ عاش بصورة جماعية ، والظاهر أنّه قد عاش كذلك دائماً ، وكان يتمتّع بصورة من صور الحضارة أيضاً .

إنَّ حضور ثقافة الماضى فى العصر الحاضر ، فى وقت اضمحلّت فيه الحضارة الّتى هى أساس الثقافة وتوأمها والملازمة لها أمر ممكن ؛ ذلك أنّ جذور الثقافة تمتدّ فى أعماق الناس . ومن الطبيعى أن تكون أكثر دواماً من الحضارة نفسها ومن معالم الحياة العملية ، ومن الأنظمة الاجتماعية ومن نمط تعامل الإنسان مع

---

(١) المعيشة بمعنى « أشكال تنظيم الحياة البشرية » فى مصطلح علماء الإناسة .

العالم والآخرين ، فَكَمْ من المعالم الثقافية تستمر لقرون فى نفوس أبناء حضارة بادت معالمها المادّية . بتعبير آخر : التقليد هو تجلّى ثقافة الأمس وتجسّدها فى حياة اليوم فى وقت تحوّلت فيه تلك الحضارة وتبدّلت .

فإذا ما ظهرت الحضارة الجديدة وترسّخت الثقافة المنسجمة معها ، فإنّ أولئك الذين كانوا فى يوم ما أصحاب حضارة أخرى تلاشت الآن أو آلت إلى الانحطاط ، تبقى فى أعماق أرواحهم بقايا الثقافة المنسجمة معها أو بقايا معالمها الثقافية البارزة . إنّ أُمَّة كهذه تقف فى مهبّ حضارة وثقافة جديدتين ، تُبْتَلى حُكْماً بالتناقض والتضادّ ، وذلك لأنّ واقع الحياة فيها يتأثّر بمتطلّبات الحضارة الجديدة ومعطياتها من جهة ومن جهة أخرى لأنّ الأرواح والنفوس تظلّ متمسّكة بتصوّرات وقيم هى ، للوهلة الأولىَ على الأقلّ ، على طرف نقيض من القيم والتصوّرات المنسجمة مع الحضارة الجديدة .

إنّه تناقض وتضادّ ابتُلِيَتْ به مثلنا شعوبٌ وأُمٌ أُخرى . نخلص من هذا إلى أنّ أزمة مجتمعاتنا الرئيسية ، الروحية والاجتماعية على حدّ سواء والّتى تتباين جوهرياً مع أزمة الحياة الغربية ، إنّما نتجت عن هذا التضادّ وما لم يرتفع هذا التضادّ فلن نخرج من أزمتنا تلك .

لقد بدأ المجتمع الغربى حضارته الحديثة باختراق التراث ورفضه ، وهذا يعنى أن بداية الحضارة الحديثة كانت منذ أن

وضعت تقاليد الكنيسة الفكرية ـ الأخلاقية وتقاليد النظام الإقطاعى الاجتماعية ـ الاقتصادية موضع الشكّ ثمّ النّفى والإنكار . وعلى ضوء ذلك برزت معضلة كانت الحضارة الحديثة وقادتها الفكريّون والمعنويّون فرسان ميدانها ، ومن ثمّ ترسّخت الحضارة الحديثة اليوم فى موطن ظهورها فى الغرب ، مع أنّه يمكن القول إنّ مركزيتها امتدّت من أوروبا إلى أميركا ، إن لم نقل إنها انتقلت إليها بالكلّية ، وتجاوزت ذلك لتستولى بنحو ما ، على مختلف أنحاء العالم ، حتّى إنّ بلداناً كبلادنا وقعت تحت تأثيرها إلى حدّ بعيد .

غير أنّ ثقافتنا من جهة أخرى ، لم تَبْقَ على الصورة الّتى كانت عليها فى السابق وذلك بسبب مِنْ بُعْدِها الضارب فى الزمان ، وبنتيجة أثر الثقافة والحضارة الغربيتين السائدتين فى العالم إلاّ أنّ نفوسنا جميعاً على أيّة حال ، لم تَخْلُ من تأثيرها الجادّ أو من تأثير جانب كبير منها ، وهى ومهما كان أمرها تتباين ، بل قد تتقاطع مع الثقافة الغربية السائدة .

وبتعبير آخر ، أقول بأنّنا كنّا نمتلك تراثاً كان توأم حضارة أخرى وقريناً لها ، وهى حضارة لم تعد موجودة الآن ، وأنّ حضارة أخرى سائدة امتدّت إلى أبعد من حدود موطنها وتدّعى الشمولية أيضاً ، قد تركت فى حياتنا آثاراً قويّة .

وكما نعلم جميعاً ، فالحضارة الحديثة قد قامت على أنقاض حضارة القرون الوسطى ، وأمّا التناقضات الّتى تُولّد الأزمة الّتى

تعانى منها مجتمعات كثيرة ، فهى نتيجة الصراع القائم بين الحضارة الجديدة وثقافتها مع التقاليد ، والّتى هى امتداد للثقافة السابقة فى عصرنا الحاضر .

وقد يُخَيّل للبعض أنَّ الحضارة الحديثة وحدها كانت تضادّ حضارة القرون الوسطى فى الغرب وثقافتها ، ولكنّنا كنّا نحن أصحاب ثقافة وحضارة تباينتا مع حضارة الغربيين وثقافتهم فى القرون الوسطى ، ممّا يعنى أنَّ عدم انسجام الحضارة الحديثة وثقافتها مع حضارة القرون الوسطى وثقافتها لا يعنى بالضرورة عدم انسجامها مع ثقافتنا الماضية ، ولتأكيد ادّعائى هذا أُشير إلى جوانب من التمايز بين الثقافتين الإسلامية والمسيحية ، وإلى التباين الحقيقىّ بين حضارتى الثقافتين ، إلا أننا وللإنصاف ، نقول بأنّ هذا لا يعنى البتة انسجام واتّساق ثقافتنا مع الثقافة الحديثة ، **بل إنّ السِّنْخيّة[1] والاشتراكَ الماهىّ بين ثقافة الغرب القروسطية وثقافة العالم الإسلامى يمكن اعتبارهما، على نحو ما، نوعَىْ جنس واحدٍ، إن لم نقل إنّهما صِنْفا نوع واحد، فى حين أنّ الاختلاف والتباين بين ثقافتنا الحالية التى تضرب جذورها فى الماضى والثقافة المنسجمة مع الحضارة الحديثة الّتى تسود حياتنا، إنّما هو اختلاف جوهرىّ فى جنس الحضارات.**

إنّ أبرز وجوه الشبه بين ثقافتنا وتقاليدنا الثقافية وبين تقاليد القرون الوسطى وثقافتها التى حاربها الغرب، وكان من نتيجة حربه

(١) أى وحدة الأصل .

عليها ظهور الحضارة الحديثة وانتشارها.هى فى محورية الله فى فكر الإنسان واعتقاده وفى نظامه الفكرى والأخلاقى والعاطفى آنذاك، وأبرز وجوه الاختلاف بين ثقافتنا وتقاليدنا الثقافية وبين ثقافة الغرب وحضارته الحديثة هى فى تبوّؤ الإنسان سدّة المحورية .

والإنسان نفسه ، فى نظر مؤسِّسى الفلسفة والفكر الحديثين الكبار الّذين ظهروا فى مطلع العصر الحديث وأيّدوا مبدأ فكرة الإله وما بعد الطبيعة أيضاً من أمثال ديكارت ـ هذا الإنسان يختلف فى ما هيّته عن الإنسان الّذى كان محور اهتمام مسيحيّى ومسلمى القرون الوسطى ، كما يختلف أيضاً دور هذا الإنسان ومركزيته فى نظام الوجود ، على الأقلّ فى عالم الطبيعة ، عن ذلك الّذى كان محور اهتمام السابقين .

وُجدت الأفكار الغيبية والإلهية والعرفانية والدينية فى الغرب وما تزال موجودة ، كما وُجدت الأفكار الإلحادية والدهرية أحياناً فى القرون الوسطى وفى العالم الإسلامى بخاصّة . بَيْدَ أنّ كلامنا الآن ليس فى أصل وجود الأفكار والمعتقدات ، بل فى الآثار المترتِّبة عليها وعمق تأثيرها وَسَعة انتشارها فى المُجْتمع ودورها فى حياة الإنسان الاجتماعية . ومّما لا شكٌ فيه هو أنّ الإله والدين قد شكّلا محور العقل والحياة فى القرون الوسطى ، وكان المسلم والمسيحى متساويين فى ذلك ، فى حين أنّ فكرة الآخرة فى العالم المتمدّن المعاصر لم تعد حيوية إن لم نقل بأنّها قد فقدت

اعتبارها تماماً ، واقتصر اهتمام إنسان اليوم على الحياة فى هذا العالم وفى هذه الدنيا .

ومع أنَّ العصرَ الجديدَ بات يفتقر اليومَ إلى قوّة العلوم التجريبية ، وما تُبَشّر به من آمال بالصّورة التى كان أسلاف الغربيين فى القرن الثامن عشر يؤمنون بها ويعقدون عليها آمالهم ، إلاّ أن العلم (Science) والتكنولوجيا ـ وهى وليدة العلم ـ ما برحا من أهمّ العناصر الّتى تقود الحياة . وإنسان هذا العصر لا يحتاج لتعيين موقفه فى المجالات الاجتماعية ، إلى أىّ مصدر أو مرجع خارج حدود الفكر والحسّ البشرىّ ، وخارج خبراته التجريبية ، فى حين أنَّ نظرة الإنسان العالِم إلى الوجود وفهمه للعلم فى الماضى يتباينان إلى حدّ كبير مع ما نراه اليوم ، وذلك لأنَّ ملاك تقدير العلم وشرفه لم يكن المنفعة الّتى تتحقّق منه فى هذا العالم على الإطلاق ، بل كان ملاكُ قيمة العلم والمعرفة عند القدماء شرفَ موضوعهما ، وبالتالى فإنّ علوم ما وراء الطبيعة ، وبخاصّة معرفة اللّه ، كانت تُعتبر من العلوم السامية .

وفى مجال الحياة الاجتماعية ، أو على الأقلّ فى جانب هامّ منها ، كان الادّعاء بأنَّ الشريعة أو تصوّر ظواهر المصادر الدينية هو الحاكم ، وكان الإنسان يرى نفسه مكتفياً بـ « الوحى » دون أىّ مصدر أو مرجع آخر للمعرفة واكتساب التكليف ، أو يرى المصادر الأخرى تابعة للوحى .

الجدير بالذكر أنَّ الفلسفة الّتى سادت العالم الإسلامى كانت

الفلسفة الّتى تدور حول العقل الأرسطى ـ الأفلاطونى الجديد[1] ، ولكنّ هذه النظرة الفلسفية وإنْ كانت متباينة فى الجوهر مع الفلسفة الحديثة وعقلانية القائلين بالحداثة ، فإنها ظلّت مُهمشة ومنزوية أيضاً فى مقابل التيّارين القويَّين : تيّار التمسّك بالشّريعة فى أوساط أصحاب السُّلطة وعامّة الناس ، وتيّار التّصوُّف فى أوساط الكثير من النخبويّين .

يمكن التأريخ لبداية الحضارة الحديثة ، بعبارة واحدة ، وبشىء من التسامح ، باليوم الّذى صار فيه الملاكُ المهمُّ ، بل الأهمّ ، لتثمين قيمة العلم هو الفائدةَ الّتى يُقَدِّمُها فى هذه الحياة ، فى حين كان جوهرُ الرؤية والقيمة فى الحضارات السالفة ، المسيحية والإسلامية ، هو تحقيرَ الدنيا . ولئن تعامل المسلمون مع الدنيا بِسَعَةِ صدر أكبر من نُظرائهم المسيحيين ، فإنّهم جميعاً كانوا يرون فى الإقبال على الحياة الدنيا وجعل ذلك غايةً وهدفاً ، أمراً مذموماً .

نحن الآن إذاً أمام أمور أربعة تواجهنا :

أولاً : الحضارة المعاصرة تُسَيْطر وتستبدّ بحياتنا نحن أيضاً ، أعنى غير الغربيين أيضاً .

ثانياً : هذه الحضارة تتطلّب ثقافة تنسجم معها .

---

(١) أى فلاسفة مدرسة الإسكندرية وعلى رأسهم أفلوطين .

ثالثاً : إنَّ حياتنا الواقعة تحت تأثير الحضارة المعاصرة مشوبة بثقافة تقليدية تنسجم مع حضارة لم تَعُد موجودة اليوم .

رابعاً : لقد تبلورت الحضارة بتجاوز الحضارة السابقة والثقافة المنسجمة معها .

بناءً على هذا كلّه ، لابدّ لنا من القول بأنَّ تعارض الحضارة الحديثة وثقافتها مع ثقافتنا التقليدية يُعَدّ من أهمّ أسباب الأزمة الّتى نعيشها فى عقولنا وحياتنا .

والسؤال الّذى يطرحُ نفسه علينا الآن هو : ما الّذى ينبغى فعله فى هذا المعترك ؟ أنُصِرُّ على التَّشبّث بالتراث ؟ أم ننجرف مع الحضارة الغربية وثقافتها حتّى نذوب فيها بالكلّية ؟ أم أنه من الممكنِ إزالة التعارض والتناقض بطريقة أخرى ؟ أو لنقل ، على الأقلِ التحكم به وتوجيهه على نحوٍ لا يؤدّى إلى تدمير حياتنا الاجتماعية ومصادرة هويّتنا الثقافية ؟

هذا السؤال ، وإن لم يطرحه ، برأيى أصحابُ الرأى فى المجتمعات غير الغربية ، (الأمر الّذى يعنى أنّ من غير الممكن توقّع الحصول على إجابة مدروسة وقادرة على إيجاد حلّ للأزمة بكل أبعادها) ، هذا السؤال كان مستحوذاً على عقول هؤلاء ونفوسهم دائماً . وتبعاً للإجابة الّتى قدّموها ، برزت فى العالم غير الغربى تيّارات مختلفة أبرزها ثلاثة ، التيّار المتشبّث بالتراث ، والتيّار المتغرّب ، والتيّار الإصلاحى . ولقد ضمّ كلّ واحد من هذه التيّارات كمّاً هائلاً من الآراء والأذواق ، ولكن وعلى رغم

الاختلافات الطبيعية الّتى تَتَّسق مع اختلاف البيئة الاجتماعية والجغرافية ، فإن التيّارات الثلاثة تمتلك عناصر مشتركة تستحقّ الدرس والتأمّل .

لم يكن التقليديون قلّة ، ولا هم الآن كذلك . وأعنى بالتقليديّين أولئك الّذين أصرّوا دائماً على التمسّك بالتراث بكلّ أبعاده ووجوهه ، أو لنقل بتعبير آخر ، أصرّوا على تقليدهم وتصوّرهم الذهنىّ وسلوكهم الّذى اعتادوه ، وكان بالنسبة لهم أمراً مقدّساً فى مقابل التجديد أو الحداثة ، واعتقدوا أنّ بالإمكان العيش فى إطار التقليد الضيّق الموروث عمّن سلفهم بإيصاد الأبواب فى وجه أمواج الحضارة الغربية وثقافتها المندفعة .

ولكنّ إصرارهم الخائب هذا لم يُعْطِهم ما كانوا يرجونه من نتيجة ، فلقد تمكّنت الحضارة الغربية من بسط نفوذها التاريخى - الجغرافى (على الأقلّ فى الكثير من مظاهرها وظواهرها) على المجتمعات التقليدية من دون أن يحاول المجتمع التقليدىّ تأمُّلَ ، بَلْه تَدَبُّرَ ، طريقة التعامل مع الظاهرة الجديدة ، ومن ثمّ اضطرّ سَدَنَة التراث إلى التراجع أوّلاً بأوّل مِنْ دون أن يكون المجتمع مهيّأً لقبول الحضارة الغربية على وجه مدروس ، وبالتالى فلقد وجد المجتمع التقليدى نفسه فى ورطة مضاعفة .

من جهة أخرى كان هناك مَنْ خُيِّلَ إليه أنّ الأزمة قابلة للحلّ من خلال قبول الحضارة الغربية بجميع أبعادها ومُتطلّباتها ومُستلزماتها، بما فى ذلك ثقافة الحداثة ، فالحداثة فى نظر مفكرى هذه الفئة أبرز

مراحل تكامل حياة البشرية وتاريخها ، وبقبولها تتحقّق السّعادة ويتحقّق التقدّم والتحرّر ، وبالتالى فلا بدّ من تمهيد الطريق لقدومها واستقرارها والعمل على إزالة العقبات التى تعترضها . وفى هذا السياق اعتقدوا أنَّ التراث عقبة كأداء فى طريق الحداثة ، وعليه فلا بدّ ، استعداداً لاستقبال الضيف القادم ، من محاربة التراث والقضاء عليه .

المؤسف أنَّ الكثير من السَّطحيِّين ، الّذين بهرهم الكمّ الهائل من الإنجازات الظّاهرة والمدهشة بالطبع الّتى قدّمها الغرب ، قد آمنوا بذلك . وفى الحقيقة فإنَّ ما ظهر فى مجتمعاتنا تحت عنوان التنوير الفكرى أو الوعى الثقافى كان فى أغلب الأحيان وليد هذا التصوّر . بَيْدَ أنَّ حصيلة فكر وسلوك هذه الفئة لم تحلّ معضلة من معضلات المجتمعات المستعصية على الحلّ ، بل زادت من مشقّة العمل ووعورة الطريق .

لماذا ؟

أوّلاً لأنّ نظرةَ هؤلاءِ السَّطحيّةَ والمُتّكِلَة على الظاهر قد سدّت المنافذ فى وجه التأمّل والتمعُّن فى **أساس الحضارة الغربية وثقافتها** ، كما أعاقت التصوّراتُ الواهمةُ الوعيَ السليمَ بالعلاقة القائمة بين التراث والحداثة .

وثانياً لأنّ هؤلاء بتحقيرهم التراث واستهزائهم به بدلاً من تحليله ونقده ، تجاهلوا نفوذه الراسخ والمتأصّلَ فى أوساط النّاس فى أحسن الأحوال ، وعجزوا عملياً عن أداء دورٍ يُذكر أمام الواقع

الماثل فى المجتمع ، ولم يتمكّنوا فى أىّ وقت من الحصول على موطىء قدم فى مجتمع يعى التراث ويأنس به ، وفشلوا فى العثور على لغة مشتركة للأحاسيس والمشاعر فمكثوا فى عُزلة موجعة ، دون أن يكون لخطابهم فى المجتمع أىُّ أثر يُذكر بل. **وهو الأسوأ. تعلّقوا بدافع المحافظة على بقائهم بأذيال الحكومات المستبدّة، أو أمسَوا عملياً وعن وعى فى الكثير من المواقف، مُنَفِّذين لتطلّعات الغرب الاستعمارية فى بلدانهم .**

إجابتان ، مهما يكن الباعث لطرحهما وبملاحظة غربتهما عن الواقع ، لم يكن لهما أثر يُذكر عملياً ، اللّهمَّ إلاّ زيادة القلق والاضطراب أكثر فى العقول وتشديد الأزمة وإحكام سدّ الطريق .

ففى عالم الواقع ، ليس للفتاوى ولا للأحلام الوردية الحؤول دون تغلغل الحضارة الغربية وثقافتها إلى المجتمع ونفاذها فى ثناياه ، كما أنَّ الخُطَب والمنشورات لا تَقْدِر على عزل التّراث وفصله عن المجتمع . فحياة الإنسان عرضة للتغيّر والتحوّل دائماً ، ناهيك بأنّ عناصر التغيّر والتحوّل ليست كلّها طوع إرادة الإنسان ، وعليه فالمهمّ هو معرفة بأىّ فهم وتدبير نتمكّن من الحضور الفاعل والواعى فى عملية التغيير والتعامل بيقظة ووعى معها ، بدلاً من الاستسلام والتسليم الأعمى لها ؟

إلى هاتين الإجابتين ـ الأسلوبين كانت هناك إجابة أُخرى قال بها بعضُ المفكّرين الخبراء الّذين يعيشون هاجس التفكير بمصير شعوبهم ، وتلك الإجابة يمكن إدراجها ، على رغم الاختلاف

الموجود بين آراء القائلين بها ، تحت عنوان **الحركة الإصلاحية أو المذهب الإصلاحى** .

ورغم أنَّ آمالاً كبيرة بمستقبل أفضل تُعْقَدُ على التيّار الإصلاحى الّذى تمتدّ سابقته التاريخية فى بلداننا إلى ما يزيد على قرن كامل ، فإنّ هذا التيّار قد ابْتُلى فى الحقيقة ، وفى أغلب الأحيان بالتيه والاضطرب أيضاً ؛ بسبب الأزمة العميقة والواسعة الّتى عصفت بحياتنا الفكرية والاجتماعية .

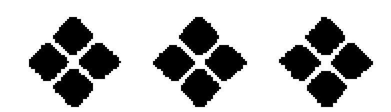
ينطلق الإصلاحيون فى عملهم من مبدأين:

الأول هو « العودة إلى الذات » وإحياء الهوية الثقافية-التاريخية لأُمّتهم وشعبهم.

أمّا الثانى فيقول بـ« التعامل الإيجابى مع معطيات التمدّن البشرى » وفى الوقت ذاته اتّخاذ الحيطة والحذر ، فى مقابل نزعة الغرب التوسّعية وتوجّهه الاستعمارى . بَيْدَ أنَّ تيّارات الإصلاح المختلفة هذه تفتقر إلى وحدة الرأى بشأن «الذات » الّتى ينبغى العودة إليها ، كما تفتقر إلى تحديد أبعاد الحياة الغربية الّتى لا بدّ لنا من اقتباسها وهضمها ، وهذا فضلاً عن توتّر الكثير من الآراء المتنوّعة ، بل والمتضادّة أحياناً ، فيما يخصّ التوجّه الإصلاحىّ الواسع ، ناهيك بما اتّسمت به أفكار هذه الآراء من اضطراب وسَطْحيَّة ووهم .

ولكن ، وعلى رغم هذا كلّه ، فإنَّ جهود الإصلاحيين ستظلُّ

أهلاً للتقدير ، باعتبار أنَّ أصحابها كانوا طليعةً واعيةً وقادةً أدركوا مكامن الألم . فهم ، وبإدراكهم أزمة مجتمعاتهم وموقعها الخطير ، أبدوا شجاعة وتفانياً فى رسم معالم الانطلاق على طريق التحرّر من التعاسة والضعة ، وخَطَوْا ما وسعهم ، الخطوات الأولى على هذا الطريق الوعر والمليء بالمخاطر ، إنَّ عظمة هؤلاء المصلحين لَتبدو جلية وأكثر وضوحاً ، خصوصاً حين تُقارَن بأسلوب عمل التقليديّين المعادين للغرب والمتغرّبين المقلدين له .



وإذا كان أسلوب عمل هؤلاء يفترض ضمناً ، وعلى غفلة من أصحابه ، ألاّ يتيسّر خارج التفكير والتأمّل فى المبادئ النظرية والمعرفية والمبانى الوجودية والأخلاقية للحضارة الغربية ، فكيف تكون الحال إذا ما أُريد اتّخاذ القرار بشأن الاستفادة منها أو رفضها ؟ فعندى أنَّ البحث بشأن التنمية قبل محاولة التعرّف على أصولها وأسسها يقود إلى التيه والضياع .

هناك من يزعم أنَّ الشعوب محكومة بالتخلّف والتعاسة ، وبالتالى بالفناء ، إلاّ إذا قبلت هى حصيلة الحداثة ، فليس أمامنا طريق آخر يؤدّى إلى النجاح والسعادة غير اعتناق الحداثة والتحضّر بالحضارة الحديثة .

إنَّ حكماً كهذا يَصِحُّ إذا ما اعتبرنا أنَّ الحضارة الغربية الّتى هى موطن التنمية هى آخر الحضارات البشرية ، فحينئذ سنقول بأنْ

ليس أمام الإنسان من سبيل غير الاستسلام أمام مرحلة من مراحل تكامل الحياة الاجتماعية .

بَيْدَ أنَّ الّذين ينظرون إلى الحياة الغربية على أنَّها الحضارة الأخيرة وليست آخر الحضارات ، ويعتبرونها أمراً نسبياً ومحدوداً وقابلاً للزوال كأى شأن بشرىٍّ آخر ، لا ينقعهم هذا الحكم البتّة . على أنَّ رفضه لا يعنى التسليم للتقليديّين والرجعيّين ، ورفض جميع شئون التنمية وموازينها ، بل يؤكّد رفض آراء أولئك الذين يُنادون بحتمية الاستسلام أمام أمواج التَّنمية بمعناها الغربى ، ولكن ومهما يكن وجه الأمر ، فإنَّ موضوع التنمية أبرز ما يهمّ مفكّرى ومسئولى المجتمعات الّتى نعيش فيها .

وَمِمّا يُذْكر فى هذا المجال أنَّ مهمّة المفكّرين والمُثقّفين الواعين تتباين مع ما يفكّر به السياسيون والمسئولون عن إدارة المجتمعات ، على رغم أنّ **الإصلاحَ لا يتحقّق إلاّ إذا تبعتِ السياسةُ والنشاطُ السياسىُّ الفكرَ والحكمةَ، ولم يُبقيا نِطاقاً مفروضاً على الأفكار** .

إنَّ ما يهمنا نحن الذين نحيا فى عالم الفكر والرأى ، هو الحذر من الاستسلام للأمواج المطالبة بالتَّنمية ، دونما سؤال عن مبادئ الحضارة الحديثة ومبانيها ، والتى هى موطن التنمية وقاعدتها ومن غير التأمّل فى روح هذه الحضارة ، أى الحداثة ، حتّى ولو لم يكن ثمّة مفر من القبول بالتَّنمية على الصورة التى اختُبِرت بها فى الغرب ، فإنَّ الاستفسار عن مبادئها ومعطياتها يبقى من أهمّ

مسئوليات المُفكِّرين والمُثقَّفين الصادقين . وفى الحقيقة فإنَّ التَّنمية الواقعية المتأصِّلة لن تتحقَّق أصلاً بمعزل عن الفكر لسببين :

أولاً : ليست التنمية موضوعاً آلياً يأتى ويستقرّ من غير تدخّل الإنسان .

ثانياً : المجتمع الّذى يفتقر إلى الفكر المبدع يفقد هويّته فى أوّل مواجهة مع أيّة مشكلة ، ولا يخفى أنَّ المشكلة الإنسانية والاجتماعية لا تُحَلُّ بالقوّة والقانون الجافّ وقرارات السياسة ، رغم إمكانية استتارها لبعض الوقت . باختصار : **إن تحديد موقفنا النهائى من التّنمية مَنوطٌ بحسم موقفنا من الحضارة الحديثة وروحها، أى الحداثة الّتى تعدّ حتى الآن من** أهمّ قضاياها ، فنحن الّذين نعيش معترك الصراع بين « التراث » الّذى هو أساس شخصيتنا وهويّتنا الثقافية والتاريخية وبين « الحداثة » الحَدَث التاريخى المهمّ وظاهرة العصر المقتدرة ، نعيش وضعاً متأزّماً جدّاً ، نعيش أزمة ابتلعت حتّى الكثير من المُصْلِحين الباحثين عن حلّ لها .

إنَّ تجربة المغتربين والتقليديّين المرّة ماثلة أمامنا ، والوعى والفطنة كل هذه تقتضى الحئول دون تَكْرار تلك التجارب الباهظة ، وتقضى بأخذ العبرة منها فقط فى بحثنا عن سبيل أفضل .

الحضارة الحديثة ، كما أسلفنا ، هى الحدث المهمّ فى العصر الأخير من التاريخ البشرى الّذى رافقته إنجازات إيجابية مدهشة لجميع بنى الإنسان . بَيْدَ أنَّ مساوئها ليست قليلة أيضاً ، ولا تنحصر فى جرائم الغربيّين السياسية والاقتصادية خارج

حدودهم الجغرافية ، بل إنَّ الغرب يُواجِهُ في داخله مشكلات عظيمة أيضاً كانت ، في جميع الأوقات تقريباً سبباً من الأزمات الاقتصادية والاجتماعية والفكرية الكبيرة .

ولو لم نكن نحن الشرقيّين ، يائسين منهزمين ، لتمكنّا من الحكم على نحو أدق بكثير ممّا نفعل على ما تسببت به الحضارة الغربية الاستعمارية لغير الغربيّين . وتأسيساً على مبدأ الحرية وعلى أنَّ الإنسان ليس أُلعوبة بِيَدِ الحوادث ، بل بيد الخيار في كلّ الأوقات فماذا عسانا يكون خيارنا في مقابل حضارة الغرب ؟ من الواضح أنَّ الاختيار السَّليم هو الّذي يرتكز إلى الوعي والحكم العقلاني . **المهمّ هو أنْ نَصِلَ إلى مرحلة وعي الغرب وروحه، الحداثة، وعطيّته، التنمية، ونتوصّل إلى حكم سليم ومنطقي .**

الحضارة الغربية موضوع بشري هي أيضاً ، وعليه فهي نسبية وممكنة الزوال ، اللّهم إلاّ أنْ يبالغ أحدٌ ما فيدّعي أن ينبوع تساؤلات الإنسان قد نضب وجفّ مع طلوع شمس الحضارة الحديثة ! أوليست الحضارة والعالم والإنسان استجابة يردّ بها الإنسان على تساؤلاته واحتياجاته المتنوّعة والمعقّدة ؟ من الطبيعي أنّ ثمّة تساؤلات واحتياجات مهمّة وتاريخية تنصبّ الإجابة عليها في عملية نشوء الحضارة ، كما وأنّ هناك تساؤلات واحتياجات تولد في ظروف زمانية ومكانية وتاريخية خاصّة تحمل في حناياها طبيعة الحال وملامح الزمان والمكان

والتاريخ وتأثيره ؛ ولهذا السبب تتبدّل الحضارات إذ لا توجد حضارة ثابتة وخالدة قطّ .

وعندى أنّ تساؤلات الإنسان واحتياجاته ستظلّ قائمة ما دام الإنسان على قيد الحياة ، وأنّ أىّ سؤال أو استفسار تتمّ الإجابة عنه ، وأيّة حاجة يتمّ توفيرها يقودان الإنسان لمواجهة عشرات الأسئلة والاحتياجات الجديدة ، وبالتالى فإنّ كمال حياة الإنسان هو حصيلة ثمرة روح الإنسان الشائكة والمعقدة .

إنّ أيّة حضارة تستطيع ، مادامت قائمة ، الإجابة عن تساؤلات الإنسان وتلبية حاجاته من خلال الطاقة الذاتية الكامنة فيها ، ولكن الحضارة شأنها شأن أيّة ظاهرة إنسانية ، أمْرٌ يختصّ بهذا العالم ؛ وإذا ما تَدَنَّت الحضارة وتناقصت قدراتها الذاتية وعجزت عن تقديم الإجابة الناجعة عن الاستفسارات الجديدة ، عندها يتلاشى الأمل بالتدريج لدى أتباعها ، وهكذا تبلى الحضارات وتنحدر نحو الانحطاط والفناء .

لقد واجهت الحضارة الغربية حتّى الآن ، أزمات عديدة ، إلاّ أنها استطاعت تجاوزها بالاعتماد على طاقتها الذاتية . ومن أبرز هذه الأزمات الأزمة الّتى عصفت بها فى القرن التاسع عشر ، وامتدّت إلى القرن العشرين بصورة ما ، كما أسفرت هذه الأزمة عن وجهها الكريه فى الحربين الكونيّتين . بَيْدَ أنّ الرأسمالية واللّيبرالية الغربية استطاعتا الصمود أمام خصمهما العنيد «الاشتراكية» بعد إجرائهما تعديلاً فى أسسهما ومرتكزاتهما ،

كما أضحى الضعف الذاتى والأصولى الّذى كان يعانى منه خصمهما سبباً فى انهياره أمام حيرة العالم ودهشته ، ولكن وكما هو واضح فإنّ الحضارة الغربية تعانى من أزمات عميقة أخرى أيضاً . أزمات تبدو وليدة التساؤل عن جوهر الحضارة الغربية ومؤشّراً على اضمحلال أو ضعف الثقة بقدرة هذه الحضارة على الاستمرار والخلود . وإذا ما وجدت هذه التساؤلات من قَبْل فهى بنحو أشمل وأكثر جدّية .

على أيّة حال ، أضحى الاعتراض اليومى على الأصول الفلسفية والأخلاقية والقيمية للحضارة الحديثة أوسع وأعمق بكثير ممّا كان عليه فى السابق .

إنّ التمعّن فى تطلّعات الحضارة الغربية ، والعوامل الروحية والمادّية المؤثّرة فى نشوئها وانتشارها ، يساعدنا فى الحكم على واقع هذه الحضارة ومستقبلها ، صحيح أنّ كلاً من روح الإنسان الباحثة ، وتساؤلات الإنسان المُتَجَدِّدة ، وعجز حضارة القرون الوسطى وثقافتها عن الإجابة عن تساؤلات الإنسان وإدراك احتياجاته المتجددة وتلبيتها ، واللّجوء إلى القهر والاضطهاد والضغوط الروحية والجسمية المهمّة الّتى عملت على تبديل السُّؤال والحاجة إلى نوع من الانفجار الفكرى والاجتماعى ممّا أدى إلى انهيار البناء القديم لحضارة القرون الوسطى الكنسية الإقطاعية ، على صحّة ما تقدم فإنّه من السَّذاجة أن نتصوّر أنّ التساؤلات الناجمة عن تأمّلات

الإنسان وروحه الباحثة كانت السبب الأوّل وراء قيام حضارة القرون الوسطى أو أن نعتبر الإجابات المنطقية الّتى عرضها المفكّرون وأصحاب الرأى استجابة لتلك التساؤلات ، العامل الوحيد وراء ظهور الحضارة الغربية أو أنها من أهمّ العوامل . فالحقيقة أنّ كلاً من هذه التساؤلات أضاف المزيد إلى كمّ الاحتياجات والرغبة فى توفيرها ، وبفعل تأثير عوامل روحية واجتماعية عديدة وكذلك دوافع لم تكن بأجمعها عقلانية ومنطقية ، كلّ ذلك كان من العوامل المؤثّرة فى إيجاد الحضارة ودوامها . ليس من شكّ البتّة فى مدى تأثّر الأطروحات التى قدّمها المفكّرون آنذاك ، ردّاً على التساؤلات وتلبية للاحتياجات فى ظهور الحضارة الحديثة ، ولكن :

أولاً : إنَّ هذه الأطروحات نفسها مبنية على عوامل ذهنية مختلفة وأحكام عاطفية مسبقة ودوافع نفسية متنوّعة ، كما أنَّها جاءت كرد فعل على ممارسات القرون الوسطى المتزمّتةالّتى يمكن ؛ بل يجب ، التعرّف على الكثير من أسبابها ودوافعها ، من خلال نقيضها ، أى تلك الأوضاع الّتى أدّت إلى ردود الفعل هذه .

إنَّ إفراط الكنيسة والنظام الفكرى ـ العقائدى المغلق للقرون الوسطى ، واللجوء إلى القوة لترسيخ النظرة الضيّقة والتصوّر البشرى عن الدين والكون ، اللّذين كانا قد اكتسبا صبغة مقدسة ، كلّ ذلك أضحى سبباً فى بروز ردود فعل متطرّفة أعلنت رفضها للنهج والأسلوب غير السليمين ، اللّذين كان يمارسهما القيّمون على الدين .

ليس هذا فحسب ، بل لقد انتقل الكثير من الشكوك والإنكار ورفض الواقع إلى أركان الدين الّتى كانت تعتبر أساس الواقع وعين التصوّرات الرسمية والتقليدية عن الدين بفعل الإصرار الباطل لأرباب الكنيسة . وعلى نَحْوٍ ما يمكن القول إنّ الدافع الّذى كان وراء إقبال الحداثويّين غير المنطقى على الدنيا وإدارة ظهورهم إلى المثال والقيمة كان وليد هذه الحالة النفسية المؤلمة .

ثانياً : من جانب آخر ينبغى علينا ألاّ نعتبر التأمّل والعطش للمعرفة وحدهما السَّبب وراء ظهور الحضارة الحديثة وثقافتها بل إنَّ الكثير من الأطماع والآمال والتطلّعات الدنيوية البحتة لعبت دوراً فى نشوء الحضارة الحديثة أيضاً ، إذ إنَّ الكثير من الحقائق السامية والمعنوية الإنسانية أمسى ، فى ظلّ ذلك ، موضوعَ تجاهل وإساءة أيضاً .

فهل كان دور القوة الفاعلة ، (الطبقة البورجوازية) ، وبتعبير آخر العناصر المؤثرة والفاعلة فى الحضارة ، فى إيجاد هذه الحضارة وقيادتها دون دور المفكّرين فى مطلع المرحلة التاريخية الجديدة ؟ هذا فضلاً عن أنّ الّذى كان يدفع البرجوازيّين ليس إيمانهم بالحقّ أو حرصهم على اكتشاف الحقيقة وتحريرها من سلطة الكنيسة والإقطاع واضطهادهما ، بل كان اندفاعهم فى الغالب من أجل تحقيق الآمال الوردية والحصول على أكبر حجم ممكن من مزايا الحياة المادّية وأفضلها .

إن «الحرّية» و «الإخاء» و «المساواة» الّتى كانت محلّ اهتمام

الجماهير وانجذابهم إليه دائماً ، مثّلت الشعارَ المركزىَّ لأحد أبرز وأشهر مظاهر الحضارة الحديثة ، أى الثورة الفرنسية الكبرى .بَيْدَ أنّ هذه الشعارات نفسها كانت فى الواقع وسيلة بيد أبناء الطبقة الجديدة لمحاربة خصومهم من الإقطاعيين والنبلاء، وتحقيق تطلعاتهم وآمالهم وطموحاتهم حتى إنّه يمكن القول إن العلماء والمفكرين كانوا فى الحقيقة المسوّغ المنطقى والعقلانى لتطلعات الطبقة الجديدة وأحلامها فى معظم الأحيان . ولا يخفى أنَّه فى ظل هذا المعترك الطبيعى اتّضح الكثير من الأمور الجديدة الّتى سخّرتها وتسخّرها البشرية لخدمتها ، واستطاعت بفضلها أنْ تُحَقِّق ، فى الكثير من الأحيان تقدّماً كبيراً أيضاً . ولكن لا ينبغى أن نغفل ، ونحن نتطلّع إلى الحضارة الحديثة فى مرآة العلم الحديث والتكنولوجيا وآرائها فى الحرية وتشكيلاتها ، وحقّ سيادة الشعب ، وإيكال السلطة السياسية إلى إرادة الشعب وإشرافه ، ونظائر ذلك الّتى تعدّ من إنجازات تاريخ الإنسانية الّذى يستحقّ التقدير - ينبغى أن لا نغفل الوجه الآخر لهذه الحضارة، أى الاستعمار والاضطهاد والقمع الدموى الّذى مورس ويمارس بحقّ غير الغربيّين، ونهب ذخائر الآخرين المادّية والمعنوية، وتدمير البيئة وترويج الإعلام الكاذب والانتهازية، وكذلك أيضاً أفول بريق الكثير من القيم الإنسانية والمُثُل المعنوية والأخلاقية وغيابها عن واقع حياة إنسان اليوم الذى بهرته الدنيا .

إنّ كلّ هذا من نتاج حضارة الغربيّين ، وإنّه لمن الخطأ

والإجحاف أن لا يرى أولئك الّذين يشغلهم هاجس التفكير بالحداثة وحصيلتها ، التنمية ، كلّ هذا جنباً إلى جنب .

بناءً عليه ، فإذا ما قبلنا أن الإنسان يستطيع ـ تبعاً لوعيه وإرادته ـ أن يختار طريقه ، بل أن يترك بصماته أحياناً لصالح الطريق الّذى اختاره ، تبعاً للظروف الاجتماعية والتاريخية ، فسيكون من الطبيعى الاعتبار أنّ التسليم التامّ أمام هيمنة الغرب ليس منطقياً ولا إنسانياً ، كما أنّ الوقوف غير المنطقى فى وجه الكثير من شئون الحضارة أمْر غير ممكن ، وإذا ما حصل فهو غير عقلانى ، **فالخطوة الأولى هى أن نعى الغرب ونتعرّف عليه بصورة سليمة .**

من جانب آخر ، لا يمكن التعامل مع التراث بسخرية واستخفاف ؛ **لأن التراثَ هو مَعينُ الهويّة التاريخية والاجتماعية للأُمم، خاصّة الأُمّة الّتى لها حضارة متميّزة وثقافة غنيّة. فالتراث تَجَلّ لثقافة المجتمع ولا مجتمع من دون ثقافة .** وفى هذا المجال نتأمل كلمة أرسطو التى وردت فى كتابه «السياسة» بالنسبة لدور العُرف وضرورة الاهتمام به فى مواصلة الحياة الجيّدة للمجتمع والمدينة .

إنَّ القضاء على التراث يعنى مصادرة أساس الهويّة التاريخية والثقافية لأيّة أُمّة والقضاء عليها ، وإذا ما قُدّر لأمة أنْ تتغيرّ ، فإنّه ينبغى لها فى البدء أنْ تَسْتَشْعِرَ وجودها وشخصيتها من خلال ارتكازها إلى هويّتها التاريخية ؛ لكى تتمكّن من الانطلاق منها . وطبيعى أن يكون التقليد فى بعض الأحيان حائلاً دون التغيير

والتطوّر ، ولذا فلا مفرّ من اختراقه بَيْدَ أنَّ الخروج على التَّقليد يكون مجدياً إذا كان مسبوقاً بالاتّكاء على نوع من التقليد الذاتى كما رأينا فى تاريخ العصر الحديث . **ألَمْ يستيقظ الغرب بفضل عودته إلى التراث؟ إذ عاد المفكرون إلى التراث اليونانى الفكرى والفنّى، وإلى تراث روما الاجتماعى، عصر النهضة، كما عاد المُتَدَيّنون إلى ما كانوا يعتبرونه حقيقة دين المسيح والتراث المسيحى الحقيقى، عصر الإصلاح، وكانت هذه العودة ذاتها مصدر إلهام لعصر البناء والإعمار .**

وكانت لهاتين الفئتين ـ المفكّرين والمتديّنين ـ حكاية واحدة فى رفض التقاليد الّتى كانت سائدة فى عصرهم ، ولكنّ الظروف واتت ، على نحو ما ، البورجوازيّين لتحقيق فوزهم بمساعدة المفكّرين غير الدينيّين ، الّذين لم يكونوا بالضرورة معادين للدين ، فشيّدوا بالتالى صرحَ الحضارة السّامِقَ فى غياب الدين أو انزوائه ، على هدى العقلانية الجديدة التى تأسّست بطبيعة الحال ، فى ظلّ العودة إلى العقلانية التاريخية . وعليه **فلا مفرّ من الاتّكاء على التراث حتّى فى الصراع معه.**

نحن أيضاً ، الّذين عقدنا العزم على التغيير والتحوّل ونريد أن نغيّر عصرنا من خلال التحكّم بمصيرنا ، يجب أن نحذر التخلّى عن تراثنا بذريعة الرغبة فى الحصول على التَّنمية الغربية ، دون أنْ نُحَقِّق التنمية الحقيقية . وإذا كان نقد التراث وإعادة صياغته أمراً ضرورياً ـ وهو ضرورى بالفعل ـ فإنَّ الأُمّة القادرة على ذلك هى الّتى تمتلك هوية ، والأُمّة التى تفتقر إلى التراث ليست أكثر من

جماعة غير واعية عديمة الفكر والإرادة يتقاذف حياتها طوفان الحوادث .

وفضلاً عن ذلك ، لا يمكن مصادرة التراث أو القضاء على أساسه بقرار يصدره أهل الفكر أو السياسة ؛ لأنَّه أعمق بكثير ، ولا يُقضى عليه بهذه السهولة . ونظراً لتأصّل التراث وتجذّره فى أعماق روح المجتمع ، فإنَّ الصِّراع غير المدروس معه ، من الممكن أن يقود إلى مُضاعفة المعضلات الاجتماعية .

لا يمكن القضاء إذاً على التقليد بسهولة ، كما أنَّه لا ينبغى أن نُقْدِمَ على مثل هذا العمل الخطير دون دراسة . لا بدّ من النظر إلى التراث باعتباره أحد الأُسس الأصيلة لهويّتنا التاريخية ، وعلينا أن لا نفرغ المجتمع من هويّته بذريعة الحداثة .

ما ذكرناه لا يعنى التّسليم التّامَ مقابل التراث أبداً ؛ لأنَّ التُّراث أيضاً ، كما هى الحضارة ، شأنٌ بشرىٌ يستحقّ التغيير . وإنْ آمنّا بأبعاد ثابتة فى مجال حياة الإنسان المعنوية والعقلية والإرادية ، فإنّه يجب القول بأنّ جانباً مهمّاً ، إن لم نقل جميعه ، ممّا نصطلح عليه بالتراث ، هو نتاج بشرى متأثّر بالظروف الاجتماعية والتاريخية للمجتمعات ، وبالتالى فهو عرضة للتغيير وليس مقدّساً وخالداً .

إنَّ تَحَوُّلَ التقاليد المستمرّ ، أحياناً بحركة مُتسارعة وأخرى بطيئة ، على مرّ التاريخ ، هو أكبر دليل على أنّه لا مفرّ من التّحوّل والتغيير . المهمّ هو كيف يَتَقَبَّل الإنسان ذلك ، وإلى أىّ

حدٍّ هو مستعدٌّ للمساهمة في العملية طوعاً ، لا أن تضطرّه الظروف إلى ذلك .

التراث يتغيّر بالضرورة ، وإن استطاع أن يحافظ على بقائه على رغم ما تقتضيه وتتطلّبه حياة الإنسان المتحوّلة ، ولكن هل هذه المحافظة مطلوبة حقاً ؟

التراث شأن بشرى وأيّ وجود يصنعه الإنسان يَجبُ أنْ لا يحدّ من وجود الإنسان غير المتناهى ذاتاً وبالقوّة . إنّ الإبقاء على التقليد الّذى انتهى عصره يعنى فَرْضَ إطار ضيّق على كيان الإنسان وروحه اللّذين يَتَّسعان إلى ما لا نهايةً . وإذا ما تَحَقّق مثل هذا ، ليس على المدى البعيد ، فإنّه يُعَدُّ خيانة بحقّ وجود الإنسان ويلحق ضرراً بروحه .

يُظْهرُ الإنسان علاقة خاصّة مع الوجود ، وفى ظلّ هذه العلاقة تنشأ الحضارة . وما وعى الإنسان لهذه العلاقة إلاّ وليد الثقافة . وإذا ما واجهت الشئون الثقافية ، الّتى تجرى بصورة طبيعية فى الروح ، وضعاً مختلفاً ، يبرز التقليد ، والتقليد يرتبط بوعى الإنسان وميوله بنحو ما . وهذا الوعى والرغبة والفهم أمورٌ طبيعيّة إلاّ أنّها غير ثابتة ، بَيْدَ أنَّ هذا التغيير لا يتعارض مع أمور ثابتة فى ساحة الوجود ، وفى ساحة وجود الإنسان أيضاً . فهل كان وعى الإنسان واستيعابه للحقيقة المتسامية والمقدّسة فى درجة واحدة ومستوى ثابت على مرّ التاريخ ؟ علماً بأنَّ الثقافة والتراث يتعاملان مع الوعى والفهم .

الملاحظة المهمّة هى أنّه إذا ما ظهر الوعى والفهم بصورة اعتيادية ، وأنِسَ بهما الناس ، وأمسى هذا الاستئناس مصدراً أو مظهراً لذاكرة الأمّة والمجتمع التاريخية ، ففى هذه الحالة يُعَدُّ التخلّى عنه أمراً شاقاً وصعباً ، وتكون الصعوبة أكبر إذا ما اتّخذت التقاليد صبغته ومظهره ،أى **إذا حلّت التقاليد وحلّ فهم الإنسان المحدودُ محلّاً الموضوعات المقدّسة والمتسامية** ، ففى هذه الحالة سيعدّ أىُّ نوع من الاعتراض على هذا الفهم والعرف ، بدعةً وخروجاً على الدين ، وعندها تُمسى محاربة المبتدع أمراً مقدّساً وسامياً ، ولهذا تكون المشكلة الآنفة الذكر أعظم وأخطر فى المجتمعات الدينية .

من المُسَلَّم به أنَّ عقولَنا وحياتَنا تقتضى التَّغيّر والتحول فى الرؤية وفى العلاقات الاجتماعية . ولا شكَّ فى أنَّ التقليد ، فى الكثير من الأحيان ، يُعَدُّ من العوائق الكبيرة التى تَحول دون التَّحوّل . بَيْدَ أنَّ رفض التقاليد بصورة عشوائية لا يُمكن تحقيقه بسهولة ، ولا هو مرغوب فيه إنْ وُجِدَ ؛ لأنَّه يُفَرِّغُ المجتمع من الهويّة الّتى يحتاج إليها فى التغيير بقوّة . **أمّا النهج السليم فهو أنْ تكون لنا مساهمةٌ واعية حذرة فى عملية التغيير والتحوّل، وفى إعادة صياغة التراث باعتباره موضوعاً بشرياً** .

سوف أحاول فيما يلى تلخيص البحث استخلاصاً لبعض الخلاصات :

إنّ مجتمعنا بحاجة إلى التحوّل والتكامل ، ولكنْ علينا أن نعلم

أنَّ التّنمية ، بمعناها الغربى ، ليست أكثر من منهج فى التحوّل ، ناهيك بأنّها ليست المنهج الوحيد ، فهى مُحَصّلة بروز وشيوع هويّة جديدة فى الغرب وفّرت للغربىّ أرضية فهم جديد للوجود وللإنسان ، استناداً إلى التراث والتذكير بالماضى التاريخى .

لقد توصّل الغرب فى البدء إلى مرحلة من امتلاك الرأى والعزم ، عبر عملية شاقّة وطويلة ، وباجتيازه لطوفان من الصراعات والأزمات ، ثمّ تضافرت عناصر الفكر والمشاعر والبحث عن الحقيقة والمنافسة والرغبة والأحقاد والأحلام الوردية ، والتقت معاً لتعطى الحداثة والتنمية .

ونحن اليوم نحيا فى عصر اتّضَحَتْ فيه ، أكثر من أىّ وقت مضى نقاطُ ضعف الحضارة الحديثة وروحها ، الحداثة ، ليس خارج العالم الغربى فحسب ، بل داخل الغرب أيضاً . نحن نحيا فى عصر شكك الحداثويّون أيضاً فى شمولية الحضارة الغربية وقدرتها على تحقيق النهاية المرجوّة ، والأخذ بالبشرية إلى برّ الأمان .

إنّ وَعْىَ هذا الأمر يقودنا إلى الامتناع عن التّسليم الأعمى لمعايير التنمية الغربية ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، يحول فى الوقت ذاته دون اعتبار التراث امراً مُقَدّساً لا يحتمل التغيير . وعليه فنحن نقف فى مواجهة شأنين بشريّين أحدهما متأصّل فى أعماق الروح والمجتمع ، والآخر ورد من الخارج ونفذ إلى حياتنا ؛ إنّهما التراث والحضارة الحديثة ، الشىء المهمّ هو أن ننظر إلى هذين الشأنين البشريّين على أنّهما شأن بشرى وليسا حقيقة مطلقة ، وغاية

نهائية منشودة ، كما ابتُلى بذلك كثير من التقليدين المتحجرين والمتظاهرين بالحداثة السطحيين .

إذاً ، ما الذى ينبغى علينا فعله ؟

اسمحوا لى بالتحليق قليلاً فى الخيال ، ولكن للبحث عن سبيل إلى الواقع ، فعلى رغْم أنَّ الخيالَ يُؤدِّى دوراً هاماً فى حياة الإنسان الفردية والاجتماعية ، إلاّ أنَّه قد يضطلع فى أحيان كثيرة ، بدور أهمّ من دور الفعل . ففى الحالات الكثيرة الّتى يعجز العقل ويصل فيها إلى درب مسدود ، يتمّ اختراق السُّدود بأجنحة الخيال وتفتح حتّى قدّام العقل آفاق جديدة ، ليصول ويجول فيها . بيد أنَّ التحليق بالخيال فى جمهرة من أهل العلم والفكر قد لا ينسجم كثيراً مع حكم العقل ، ناهيك بأنَّ التَّحليق بالخيال فى ميدان بكر لم تَتَحَقَّق فيه بعد القدرة للصَّول والجَول بمركب العلم والفكر المحض ، ليس بالأمر المكروه ، فكم من أحلام فَتَحت أمام العلماء والمُفكّرين سبل حلّ لمستقبل أكثر إشراقاً . وإذا كانت لغة العلم ثقيلة ذات لكنة فى موضوع ما ، فإن إطلاق سراح الخيال لا يعدّ أمراً مخالفاً للعقل . وبطبيعة الحال فإنّ الخيال المعنىّ هنا ليس الخيال المجرّد ، بل الخيال الّذى يمكنه إيصالنا إلى شواهد علمية وعينية كثيرة .

أيّها السادة :

علينا، فى سبيل تحديد معالم عصرنا الراهن، أن نتطلّع إلى المستقبل،

ولكى نتمكن من تصوّر مستقبلنا تصوّراً سليماً ومقبولاً ، فلن يكون أمامنا خيار آخر سوى أن نعى ماضينا ونألفه ونأنس به .

فى الغد ، سوف تخطو البشرية خطوات أبعد ممّا وصلت إليه حضارة اليوم ، ولا شكّ عندى فى مجىء ذلك الغد ، وفى أنّ من سيبلغه أوّلاً إنّما هو الّذى يعى ماضيه ويتطلّع فى الوقت عينه صوب المستقبل ، وليس المتحجّرين التقليديين الرازحين تحت أغلال الماضى ، ولا أهل الحداثة السطحيين المبهورين بهيمنة العصر وظواهره .

فلماذا إذاً لا نتطلّع إلى الحضارة القادمة ، ونبدع كلّ نوع من التغيير ينسجم معها ولا يعارض الدنوّ منها ؟ ومن الطبيعى أنّ رؤية كهذه تحلّق عالياً مبنية ومسبوقة بنظرتين نقديتين : أولاهما النظرة النقدية للتراث ، والاستعداد لتقبّل التغيير فيه ، والثانية هى النظرة النقدية للحداثة باعتبارها مرحلة عابرة فى تاريخ حياة الإنسان ، وليست آخر مراحل تكامل التاريخ . وبطبيعة الحال فإن استشراف المستقبل لا يعنى إنكار الحاضر ورفضه .

إنّ الذين يصنعون الحضارة ورجال المستقبل تتحقّق لهم درجة من الوعى والنموّ والشجاعة ، تمكّنهم من اكتساب جميع المعطيات الفكرية والميدانية لإنسان اليوم .

نحن لسنا محكومين بالذّوبان فى نظام الحضارة الحديثة إلاّ إذا

كُنّا لا نؤمن بدور الحرّية وإرادة الإنسان الّتى تتأثّر بالطبع بالعوامل البيئية والتاريخية والاجتماعية ، دون أنْ تكون أسيرة لها ، بَيْدَ أنّنا لا يسعنا بحال تجاهل كلّ هذه الإنجازات الباهرة على صعيد العلم والاجتماع والسياسة . لِمَ لا نُحاول إيجاد علاقة جديدة مع الوجود بذهابنا إلى أبعد من الحاضر ، وذلك بالتّسلّح **بنقد الحداثة والتراث معاً ، وأن نكون أصحاب رؤية جديدة نقيم على ضوئها حضارة جديدة ، وأن نُمَثّل نحن مرحلة جديدة فى حياة الإنسان ، فى وقت نرتكز فيه إلى ماضينا الذى أنتج حضارتنا ، ونستفيد من معطيات الحضارة الحديثة الباهرة ؟ لا سيّما وأنّنا نمتلك فى التاريخ سابقة حضارية تركت بصماتها على مصير العالم والإنسان ؟**

لِمَ لا نحاول ثانيةً إيجاد حضارة أُخرى ؟ وليس بالطبع بالرجوع إلى الماضى للوقوف عنده ، وهى الرّجعية بعينها ، بل للارتكاز إلى قاعدة موثوقة ومطمئنّة ، والانطلاق منها إلى أبعد من آفاق هذا العصر ونحن نحثّ الخطى نحو مستقبل يسنده الماضى والحاضر معاً ؟

هذا والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

التنمية.. والحرية

بسم اللّه الرحمن الرحيم

فى الخامس من شهر ربيع الأول سنة ١٢٦٨ هـ ، افتتح الملك القاجارى ناصر الدين شاه « دار الفنون »[1] . ودلالة هذا التاريخ تُشير فى الحقيقة إلى أن تلك الواقعة ينبغى أن تكون قد أرست قواعد انطلاقة ذلك المسار الذى نصطلح عليه راهناً بـ « التنمية » .

بَيْدَ أن السؤال الجدّى الذى مازلنا نطرحه بعد مضى ١٤٨ عاماً ، عن معنى التنمية وسبل بلوغها ، يدلّ على أننا لم نصل إلى التنمية بعد .

لماذا ؟ لا أريد أن أتحدّث فى هذا المضمار ، لا سيّما مع الغموض الذى يكتنف أجزاء هذا المفهوم ، والغموض المضاعف الذى يلفّ مكوّناته وما هى عليه تركيبته فى الوقت ذاته .

■ كلمة السيد محمد خاتمى فى الندوة التى نظمتها كلية العلوم الاجتماعية فى جامعة طهران صيف عام ١٩٩٥ تحت شعار « التنمية الثقافية » ، وقد عاودت نشرها جريدة الحياة فى ١٠ نوفمبر ١٩٩٧ .

(١) دار الفنون ، أحد المعاهد العالية المعروفة ـ دعا إلى تأسيسها الميرزا تقى خان أمير نظام فراهانى الشهير بأمير كبير ، ولا تزال قائمة حتى اليوم .

يُنظر : لغت نامه دهخدا (موسوعة دهخدا) ، مؤسسة موسوعة دهخدا ، الطبعة الجديدة ، المجلد السادس ، ص ٩٠١٥ .

وإذ آمل أن تفضى الجهود المثابرة لأصحاب الرأى وتحليلات الأساتذة الأجلاء ، إلى رفع الغموض عن هذا المفهوم وما شاكله بالقدر المستطاع ، فما أطمح إليه فى هذه المداخلة أن أسوق بحثاً ثقافياً عاماً حيال شرط التنمية لا التنمية ذاتها .

ما أراه هو أن التنمية مهما كانت ، هى فى نهاية المطاف ضرب من التحوّل والتغيّر فى المجتمع ، وبمعناها المعاصر هى الصيغة والتعبير الوحيد عن ذلك التحول .

يتلخّص فحوى كلامى بالآتى :

أولاً : لن يكون أىّ تحول إنسانياً وفاعلاً ما لم تكن هناك مشاركة إرادية واعية للبشر فى إيجاده .

ثانياً : يتمثل الشرط الأساسى فى حضور الإنسان ومشاركته الواعية الحرة فى ظاهرة التقدّم والتغيير ، بوجود فكر مستقرّ ثابت فى المجتمع .

ثالثاً : لن يتحقّق وجود فكر مستقرّ وفاعل ، (بعنوان كونه تياراً متجدّداً وحيّاً فى المجتمع) ، إلا فى إطار الحرية .

والنتيجة التى يُفضى إليها السياق الآنف هى أنه لا يمكن أن ننتظر دخول أىّ تحوّل إيجابى على أىّ مجتمع ، إلاّ مع شيوع الحرية ورسوخها فيه ، هذا على أن نوضح مباشرة **أن ما نعنيه بالحرية بشكل دقيق هو حرية الفكر ، وتوافر عناصر الأمن فى إبدائه ، وتهيئة المقدمات اللازمة لتأمين تلك الحرية وضمان هذا الأمن .**

وبحثى الذى أقدّمه بين يدى الأساتذة الأجلاّء فى هذا الملتقى ، يدور حول هذه المسألة بالذات .

اسمحوا لى قبل أن أتناول الفكرة الأساسية ، أن أمرّ على نقطة

بشأن التنمية ذاتها ، مضمونها أن التنمية التي تُطرح في هذا العصر هي شأن غربي ، وهي تنطوي على مفهوم صناعة أهل تلك الديار . فإذا كان المراد من التنمية مفهومها ذاك فلا مناص للراغبين بها من أن ينتحلوا الحضارة الجديدة تلك .

إن التنمية بمعناها المعاصر ، هي ثمرة وحصيلة للحضارة الجديدة ، وإذا ما جاءت تلك الحضارة فسترافق معها التنمية تلك ، كذلك فليس جزافاً كلام من يذهب إلى أنه يتعيّن أولاً قبول « العقل » الغربي حتّى يتهيّأ الطريق لانبثاق التنمية ، بل بمقدورنا أن نستكمل تلك المقالة بإضافة التالي : علاوة على قبول العقل والرؤية الغربيَّين ، ينبغي أن تؤخذ الطريقة إلى النهج الغربي الذي يتّسق مع تلك الرؤية .

بَيْدَ أن قناعتي الشخصية هي أن التنمية بمعناها المعاصر ضربٌ من ضروب التحوّل ، وصيغةٌ من صيغ التكامل والتقدّم في المجتمع الإنساني ، لا الصيغة الوحيدة لذلك والتعبير الذي لا ثاني له .

يقيناً أن تلك الصيغة للتنمية والتغيير تحظى بالكثير من المزايا والفوائد للبشرية ، كما أعتقد أيضاً أنها تنطوي على الكثير من النواقص والأضرار .

ففي إطار تلك الحضارة والنموذج التنموي المنبثق عنها ، أُغفل الكثير من الحقائق ، حقائق صار غيابها عن الساحة منشأ لنواقص وثغرات حيوية ، بل سبباً لآلام راحت تحوط مسيرها .

أمّا بالنسبة لنا ، فعندما نطرح السؤال المعهود : « ماذا علينا أن نفعل في مضمار التنمية ؟» لا نستطيع ، بل لا ينبغي لنا أن نعود

القهقرى ٤٠٠ سنة إلى الوراء ، أى إلى نقطة البداية التى انبثق منها الغرب حتى وصل إلى حيث هو ، طالما أن بين أيدينا التجربة الغربية الهائلة ، وإذا ما كنّا أهل تدبير واعتبار ، فما علينا سوى أن نشقّ طريقنا إلى المستقبل بملاحظة هذه التجربة الضخمة . ومعنى ذلك أن نبذل العناية بمزايا هذه التجربة ونواقصها، كى نتوفّر على اختيار الأفضل وبلوغه .

بديهى أن كسر نطاق الاحتكار فى أن لا يكون النموذج السائد للتغيير والتقدّم الذى يكتسب وصف التنمية ، هو النموذج الغربى ، لا يعنى بحال إنكار حقيقة الحضارة الجديدة ، بل يمكن القول صراحة ، إن أىّ تحوّل فاعل لن ينبثق فى إطار الحياة التى تنشد الرفعة والتجدّد ، ما لم يمرّ فى صميم حضارة الغرب ، ويتمثّل معارف الحضارة الغربية ووعيها ، ويلمس روحها الضاجّة بالتجدد .

إن من لا يعرف هذه الروح ، لا يستطيع أبداً أن يحقّق تغييراً نافعاً فى حياته .

أجل ، إن الشرط فى التحوّل الأساسى هو تجاوز الحضارة الغربية ، والمرادُ من وعيها ، معرفةُ الأسس الفكرية ومرتكزات الحضارة الجديدة الكامنة وراء ظواهرها .

ولكنّ المؤسف أن شعوباً مثلنا ما زالت تفتقر لمثل هذه المعرفة ، حتّى إننا ـ حسب تعبير المرحوم الدكتور عبد الهادى الحائرى ـ لم نتعرّف حتّى الآن وعلى نحو صحيح على « وجهى الحضارة الغربية » ، وغالباً ما يأتى تعاطينا مع الغرب على أساس

سطحي . أي أننا نتعاطى مع وجه واحد ونهج واحد من نهجي الحضارة الغربية ينتهي إلى الإعجاب حدّ الافتتان ، أو الصدود حدّ الكراهة والنفور ، وكلاهما آفتان في المعرفة العلمية .

وما أراه أن البحث في التنمية لا يستقيم إن لم يُمَهَّد له ببحث أساسي يختصره السؤال الآتي : ما هي الحضارة الغربية ؟ وكذلك السؤال عن طبيعة علاقتنا بهذه الحضارة ، وما ينبغي أن تكون عليه . فإذا ما تمّ البحث حول هذين السؤالين بشكل صحيح ، فإن البحث في التنمية ذاتها يبلغ النتيجة المرجوة منه على نحو أسرع وأكثر سلامة .

أعود الآن إلى النقطة الأساسية التي أبغيها ، باستعادة السؤال السابق : لماذا لا نزال نراوح مكاننا بعد مضيّ قرن ونصف على تأسيس « دار الفنون » بوصفها الأمّ والمركز الأساسي للعلوم الجديدة ، إذ مازال سؤالنا : ما هي التنمية ؟ ولماذا لم تتحقّق في واقعنا ؟

اسمحوا لي أن أبذل سعيي في الإجابة على هذا السؤال المهمّ باستعادة سالفة تاريخية أخرى ، مفادها أنه في يوم الجمعة المصادف ١٧ ربيع الأول سنة ١٢٨٦ هـ ، أي بعد ثلاثة عشر يوماً فقط من افتتاح دار الفنون ، كان أمير كبير مبتكر الفكرة والعقل المدبر لتأسيس دار الفنون ، يُقتل غيلة في حمام فين كاشان ، بناء على أوامر وجهها ذات الشخص ، الحاكم الذي افتتح دار الفنون قبل ذلك بأيّام[١] !

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٩١٨ .

ويبدو لى أن السرّ وراء سوء طالعنا التاريخى يكمن فى رمزية هذه النقطة بالذات .

قرون وحركتنا التاريخية تمضى ، ولكن لا على أساس الحضور الواعى المثابر لإنسان هذه الأرض فى ساحة المصير ، بل تمضى وأزمّتها بيد الحكومات المتسلّطة المستبدّة التى تتلاعب بها الأهواء . وباستبداد تلك الحكومات وتحوّل السلطة إلى محور فى المجتمع ، افتقد الإنسان إمكان الحضور فى مضمار الحياة الاجتماعية ، وسحقت بالتالى شخصيته بعد أن سلبت حقّ التعبير عن نفسها بصيغة طبيعية ، (قانونية ورسمية) .

وفى مجتمع ينحدر فيه الإنسان إلى هذا المآل ، ما بالك بفكره الذى يعتبر أهمّ الخصائص الوجودية للبشر ، وبالحرّية الفكرية التى تعدّ الشرط الأساسى فى مجال تقرير المصير والرصيد الأوفى لتجدّد الحياة ونموّها ، فهل تراهما يحظيان بنصيبهما من الاعتراف والتقدير ؟

إن كبريات مشاكل تاريخنا هى هيمنة حاكمية « التَغَلُّب » وسلطتها على مصيرنا ، بحسب تعبير الفارابى[1] . هذا « التَغَلُّب » الذى كانت له قبل الإسلام جذوره الضاربة ، حتّى حظى أواخر العهد الساسانى بضرب من التنظير بحيث تحوّل إلى مدوّنة نظرية !

مع انبثاق الإسلام ، اهتزت قواعد سلطة « التَّغَلُّب » ، بَيْدَ أن الأمر لم يدم أكثر من أربعين سنة بعد ظهور الإسلام .

---

(١) أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان أوزلغ المشهور بالفارابى ، المعلم الثانى ومؤسس الفلسفة الإسلامية ، توفى سنة ٣٣٩ هـ .

فبعد انتهاء المدّة التى اكتسبت عنوان « العصر الراشدى » عاد الاستبداد والقهر ليحكما الأُمّة الإسلامية ويتحكّما بها على نحو أخطر ، ولكن مع فارق هذه المرّة تمثّل بالسعى لتوجيه هذا التغلّب والاستبداد وقهر السلطة على أساس قواعد الدين الإسلامى ذاته !

لو أن الحضارة الإسلامية أخذت مكانها بدلاً من الحضارة الإيرانية فى عهد الساسانيين أو أيّة حضارة أخرى ، لكان من المنتظر أن تستبدل الصيغة السياسية لتلك الحضارات بالصيغة السياسية للحضارة الجديدة ، ولا سيّما بعد أن ظهرت نماذج من تلك الصيغة فى بدايات العصر الأوّل من الحياة الإسلامية ، تبعث المزيد من الأمل .

فمع الصلة التى وثّقها العهد النبوى مع الأُمّة ، والخلفاء من بعده إلى حدّ ما ، ولا سيّما عهد الإمام علىّ (عليه السلام) على أساس العناية بأمور مثل الشورى ، البيعة ، المصلحة ، المجتمع وغيرها ، انفتح أفق آخر أمام الإنسان الإسلامى - أُفق لو قُدّر له أن يدوم ، وأن يحاط بالتفكير الجدّى ، لكان للأمّة الإسلامية ، من دون شكّ ، مصير آخر .

بيد أن ما يُؤسى له هو أن الأمر لم يدم طويلاً ، إذ لم تلبث أن عادت حاكمية « التَّغَلُّب » ترمى بظلالها السوداء على حياة المسلمين . والذى يؤسف له أكثر هو المساعى التى ظهرت لتبرير سلطة « التَّغَلُّب » تُماشى حركة تلك الحضارة خطوة فخطوة ، حتّى اشتدّ ساعدُها وترسّخ وجودها ونما ، حتّى أفضى الأمر

بالنهج السياسى ذاك إلى السير بالحضارة إلى مهاوى التدهور والانحطاط ، فيما بقى هو لابثاً مكانه !

فى فضاء مثل هذا لم تبرز الفرصة للتأمّل فى المصير السياسى ، باستثناء ما حصل مع الفارابى مؤسّس الفلسفة الإسلامية ، الذى بحث في مجال الفلسفة السياسية والفكر المدنى . هذا الفكر الذى دشّن بداياته مع الفارابى وانتهى به أيضاً .

فبعد الفارابى ، اضمحلّ التفكير فى الدائرة الحياتية لهذا العالم . وبسبب هيمنة حاكمية « التَّغَلُّب » ولوازمها سيق مسار البحث تلقاء الغور فى عوالم ما بعد الطبيعة التى لا أمد لنهايتها ، حتّى رأينا أنه وبرغم النموّ الفكرى فى الإلهيات ، بل وحتى الطبيعيات والطبّ وغيرها ، أمسى البحث الفلسفى فى المصير السياسى والبنية السياسية للمجتمع والحياة الاجتماعية بحكم المهمل تقريباً .

وإلى جانب البحث الفلسفى فيما بعد الطبيعة ، انتعش ضرب آخر من الفكر ، فى الإنسان والوجود ، أعنى به العرفان والتصوّف ، لا سيّما فى أوساط النخبة الاجتماعية .

وبعض موارد هذا الفكر ووجوهه ، وإن كان لها أن تُحْمَل على محمل معارضة الوضع القائم ، فإنها لم تدرك الغاية ولا حالفها التوفيق لأنها بدلاً من أن تواجه الواقع السياسى الحاكم وتتلمّس سبيل الخروج من الأزمة القائمة بعرض نموذج آخر للحياة ، بادرت - على الأقلّ فى اتّجاهاتها المتطرّفة - إلى معارضة السياسة بنفى موضوعها . وبتعبير الفارابى ذهب الكثير من أصحاب تلك الطائفة للقول بأن إدراك الموجود الحقيقى ونيل السعادة ، يستلزم

إبطال وجود هذا العالم أو لوازمه ، أى جميع ما له صلة بهذه الدنيا ، والمجتمع المدنى من بين ذلك[1] .

وبنفي الدنيا والانسحاب من مسرح الحياة ، صارت السياسة عملياً طعمة للأيادى الملوّثة بالدماء ، وتركت تسقط كلّياً بيد المستبدّين . وبدلاً من أن يواجهوها ويشتبكوا معها ، تراهم انكفأوا عنها ولم « يلطخوا » أيديهم بالانشغال بها ، كما هو حال أكثر العلماء والنخب .

من جهة أخرى هيمنت على دنيا المسلمين نظرة سطحية ظاهرية ، حتّى إن الفلسفة التى صارت حبيسة جدران اللاهوت وما بعد الطبيعة ، نُحّيت جانباً ودُفعت إلى الهامش ، ولم يكن لها تأثير يُذكر فى بنية الحضارة الإسلامية .

وبين هذا وذاك ، فإن ما شاع بين المسلمين على أنه فكر سياسى هو ، من جهة ضربٍ من النظام العملى ـ العملى الذى يُعزى ابتكاره ووضعه ظاهراً ، إلى الفقيه الشافعى المعروف فى عصر الخلافة العباسية ، أقضى القضاة فى بغداد ، أبى الحسن الماوردى فى كتابه المهمّ الذى صنّفه بعنوان الأحكام السلطانية[2] . وبعد برهة من الزمان قدم أبو يعلى الفرّاء القراءة الحنبلية لهذا الفكر تحت العنوان ذاته[3] .

---

(١) آراء أهل المدينة الفاضلة ، الفارابى ، دار العراق ، بيروت ١٩٥٥ ، ص ١٢٥ ـ ١٢٨ .

(٢) أبو الحسن على بن محمد بن حبيب الماوردى البصرى البغدادى (٣٦٤ ـ ٤٥٠ هـ) .

(٣) القاضى أبو يعلى محمّد بن الحسين الفرّاء الحنبلى ، توفّى سنة ٤٥٨ هـ .

من جهة أخرى انبثق تيّار فى الفكر السياسى هو فى واقعه إحياء واستدعاء لنماذج وأمثلة شهدها العالم قبل الإسلام .

وأعتقد أن أجلاّء أمثال أبى الحسن العامرى[1] وابن مسكويه الرازى[2] تحوّلا إلى جسر بين الفكر الفلسفى وبين تنظير سياسة التغلّب التى مضت تجربتها فى إيران القديمة ، حين أسَّسوا لمنعرج عسر تمثّل بالعودة إلى مذاهب السياسة السابقة على الإسلام ، إذ اكتسب هذا الفكر صيغته النهائية كمنظومة مدوّنة مع نظام الملك[3] والغزالى[4] ، (إذا كان الجزء الثانى من نصيحة الملوك من تأليفه) ، وصار من جملة العقبات الأساسية التى تحول دون الفكر الجادّ فى حياة المسلمين .

كان ذلك كلّه مؤلماً ، بَيْدَ أن الأمضّ ألماً منه أن تتعاطى الأمّة الإسلامية مع هذا المصير المضطرب على أنه تقدير إلهي تاريخى أو طبيعى لا مفرّ منه ، حين لم تعد تستطيع أن تفكّر فى المجال السياسى بعدئذ خارج إطار « التَّغَلُّب » .

ومع هذا المصير ، لم تجد الأُمَّة إلاّ أحد سلوكين : إمّا الإذعان والتعايش ، وإمّا مواجهة سلطة الحاكم واستبداده ، استناداً إلى القوّة والإرهاب والسيف . وفى أجواء مثل هذه انجرّت المواجهات

---

(١) أبو الحسن أبو ذرّ محمّد بن الحسن العامرى النيسابورى ، توفّى سنة ٣٨١ هـ .

(٢) أبو على أحمد بن محمّد بن مسكويه الرازى ، الملقّب بالخازن ، توفّى سنة ٤٢١ هـ .

(٣) الخواجة نظام الملك الطوسى ، صاحب سير الملوك وزير سلاطين السلجوقية المعروف (٤٠٨ - ٤٨٥ هـ) .

(٤) أبو حامد محمد بن محمّد الغزالى ، الفقيه والعارف والمفكّر الإسلامى المعروف ، الملقّب بحجّة الإسلام (٤٥٠ - ٥٠٥ هـ) .

السياسية فى عالم الفكر والنظر إلى مضمار البحوث الكلامية وميدان التاريخ الفرقى ، بدلاً من أن تركّز على دراسة وتحليل ماهية « التَّغَلُّب » الموجود .

وإذا ما انبثق سؤال فى مجال السياسة القائمة ، فقد كان ينصبّ على هوية الحاكم المتسلّط المستبدّ . فإن كان من الفرقة المطلوبة ذاتها ، تمّت المبادرة لتأييده والاتساق معه ، وإلاّ نهضوا لحربه ومواجهته ، كما حصل فى صراعات القرامطة ، الزنوج ، الفاطميين ، الإسماعيليين ، الخوارج وغيرهم فى معركتهم مع إمارتَى « التَّغَلُّب » الأموى والعبّاسى .

وإذا ما توافرت الإمكانات لهؤلاء الناهضين وواتتهم الفرصة رأيتهم ينهجون ـ فى السلطة والحكم ـ طريق الغلبة ذاته .

وآخر نموذج على هذه الحال تمثّل بتعايش كبار علماء الشيعة مع ملوك « التَّغَلُّب » الصفوى المتشيّعين وتبرير سلطتهم وتسويغ حكومتهم .

إن ما نفتقده على طول خطّ تاريخ الفكر السياسى ، إذ قلما نلمس ما يدلّ عليه ، هو غياب السؤال عن ماهية « التَّغَلُّب » ، وعن كيفية الخروج منه .

ما أسعى إليه من خلال الاستعراض التاريخى الإجمالى الآنف ، هو أن أسلّط الضوء على مشكلتنا فى عدم تحقّق التنمية ، ولماذا بقينا فى الخطوة الأولى من سؤال التغيير والتنمية ، على رغم مرور ١٥٠ سنة على تأسيس دار الفنون .

أعود لتكرار نقطة ذكرتها سابقاً : **إن التغيير والتقدّم ينبغي أن يُسبقا بالفكر، والفكر لا ينمو إلاّ في إطار الحرّية وعلى أرضيتها .**

لكن سوء طالعنا التاريخي لم يسمح ـ كما تمّت الإشارة لذلك ـ بتفتّح شخصية الإنسان في هذا العالم والاعتراف بها ، وبالتالي بقي رصيد تلك الشخصية وتجلّيها المتمثّل بالفكر والحرّية الفكرية ، مزوياً جانباً .

ولقد تضاعفت المشكلة خلال القرنين الأخيرين ، حين استفحل سلطان الغلبة والاستبداد وهيمن بشكل مدمّر وخطير على حياتنا الاجتماعية ، ففي غضون هذه الحقبة برزت في العالم ظاهرة سلبية سيّئة باسم « الاستعمار » فصرنا مبتلين باستبداد تابع للاستعمار .

والاستبداد الذي هَيْمَنَ علينا في هذه الفترة لم يعد من طراز الاستبداد التاريخي المتمثّل بسلطة قبيلة أو قوم فرضوا أنفسهم على الواقع بقوّة السلاح وسطوته ، (وهو ما حصل على مرّ التاريخ ، إذ مع غياب دور الأمّة تمركزت السلطة بيد طغاة متغلّبين من جبابرة الأقوام والنِّحل) ، بل أضحى الاستبداد الداخلي تابعاً هذه المرّة ومرتبطاً بالقوى الدولية ، التي تحرّكت لفرض هيمنتها العالمية بهدف الاستيلاء على كلّ مواردنا المادّية والمعنوية ، وأرادت للاستبداد الداخلي أن يتحوّل إلى أداة طيّعة مذعنة بين يديها .

ما يبعث على الأسف أن مزاجنا ، (روحنا) ، لم يعد يتّسق مع الحرّية ، ولا يزال كذلك في نفرة من الحرية بسبب ما جرى

علينا . ومثال ذلك أنه كلّما سنحت الفرصة لكى نمارس الحرّية ونجرّبها ، خلال نصف القرن الماضى ، جاءت الثمار ضئيلة والحصيلة غير موفقة .

برز ذلك واضحاً بعد واقعة شهر يور سنة ١٣٢٠ (أيلول / سبتمبر ١٩٤١) عندما حظينا بأجواء حرّة نسبياً ، تلت الحرب العالمية الثانية والتحوّلات التى نشأت عنها فى إيران . فاضطربت القوى الذاتية ، (القوى التى تنتمى إلى الشعب ، دينية ووطنية) ، وأصيبت بالدوار والشلل ، فما كان من القوى الانتهازية إلاّ أن استثمرت الفرصة التى وفّرتها أجواء الحرّية ، لكى تقبض على السلطة وتمسك بزمام المبادرة ، بالإضافة إلى فعل العامل الخارجى الذى تصاعدت مؤامراته لتتحوّل إلى باعث يحول دون استتباب النظام الطبيعى واستقراره على أساس مبدأ الحرّية فى المجتمع .

إن حال الذهول هذه والاضطراب والعجز عن الفعل عندما تلتقى مع خيانة البعض فى الداخل ، وتأتى توأماً مع مؤامرة الخارج ، لا تثمر مع الأسف إلاّ شيئاً من قبيل الانقلاب الأسود الذى شهدته إيران فى ١٩ آب (أغسطس) ١٩٥٣ ، (الانقلاب الأميركى ضدّ حكومة الدكتور مصدق وإعادة الشاه المستبدّ إلى سدّة الحكم) ـ ذلك الانقلاب الذى طوى ملفّ الفرصة السانحة وختم على تلك الحقبة بهذه النهاية .

ومرّة أخرى تداعت الثورة الإسلامية لنصرتنا ، وجلت لنا صبح الحرّية . ومهما تضاربت الآراء وتباينت الميول حيال هذه الثورة ،

فإن أحداً لا يسعه ـ إذا ما رام الإنصاف ـ إلاّ أن يُسلِّم للثورة الإسلامية فى إيران بهاتين الخصيصتين البارزتين :

● الأولى : أن أىّ تحوّل حتّى الآن فى البلاد التى تشبه بلدنا ، لم يكن إلاّ من خلال القوّة العسكرية ، ولم يتمّ فى الغالب إلاّ بصيغة الانقلاب العسكرى ، أمّا الثورة الإسلامية فلم تعتمد على الاستعمار أو تتكل على قوّة السلاح ، بل تمّ لها النصر على أساس حضور الشعب ، وقد استند العامل المصيرى فيها إلى قوّة الكلمة وسلطة الإرشاد .

● الثانية : لقد بدأت الثورة فعلها بالحرّية وليس بالبطش والقمع ، حتّى لقد اقترنت الحرّية بالفوضى خلال السنين الأولى للانتصار ، ولمّا كنّا متأثّرين بطبيعتنا الثانية المتمثّلة بالاستبداد الذى ورثناه من ماضينا التاريخى الأسود ، لم نَسْتَطِعْ أن نستفيد من الحرّية فى هذه البرهة أيضاً ، على النحو الصحيح .

ولا شكّ فى أن العالم الخارجى الذى كانت له يد مضمرة ومعلنة فى وجودنا خلال القرنين الماضيين ، لم يبق فى موقع المتفرج بل تدخّل ، تارة عن طريق التآمر ، وأخرى عن طريق عناصره الخفية ؛ ليحول دون أن نعيش الأجواء الطبيعية ، نتفاعل مع الحرية ، وننعم بمزاياها ، ثمّ نعمد إلى معالجة مشاكلها بأنفسنا .

ففى جامعاتنا هذه ، برزت جماعات راحت تثأر من إدبار الشعب عنها ، بتكديس السلاح بهدف إسقاط الحكومة واستعدّت لمعركة دموية تُفضى بها إلى الاستبداد واحتكار السلطة .
وما أكثر ما أعلنت تضامنها مع الحركات الانفصالية على الحدود ،

ما أدى إلى بروز جوّ تخريبى شاعت فيه التهمة حتّى صار الجميع يسىء الظن بعضهم ببعض .

والشىء البديهى أنه لم يسع السلطة المنبثقة من صميم الثورة أن تقف مكتوفة الأيدى بانتظار أن تتكرّر مرّة أخرى واقعة مرّة من طراز انقلاب ٢٨ مرداد سنة ١٣٣٢ (١٩ آب «أغسطس» ١٩٥٣) فكان ما كان من تشدد فى إدارة البلد للحؤول دون الفوضى واضطرام الأمور .

ومن جهة ثانية وفّرت الأوضاع الاستثنائية التى برزت بعد انتصار الثورة الذريعةَ للبعض لكى يتحرّك لمواجهة الحرّية ذاتها ومناهضتها ، بدلاً من وعى العوامل التاريخية التى أفضت إلى عدم الانسجام مع الحرية ، وصار هذا الواقع الماثل فى مناهضة البعض للحرّية ذاتها منشأ للاضطراب وعدم الاستقرار فى المجتمع و لا سيّما وأن أولئك النفر سعوا لأن يعطوا لضيقهم هذا صبغة إسلامية ، ولأن يغطوه بإرهاب دينى .

بَيْدَ أن دين أولئك لم يكن أكثر من بعض العادات التى ألفتها آذانهم وبديهى أن هذه العادات والمألوفات الذهنية لا تصمد فى الجوّ الحرّ المفتوح الذى يسود فيه التعاطى الفكرى والسليم ، ولكن هؤلاء الذين ناهضوا الحرّية ذاتها ، بدلاً من دراسة جذور وعلل الوضع الراكز فى صميم تلك الحرّية ، وما قد يفضى إليه ذلك الوضع من تخريب وفوضى ، لم يكونوا قلّة .

ولأنهم كذلك ، رأيتهم ، وتراهم ، بدلاً من أن يمارسوا الحرّية ويضفوا على ممارستها طابعاً قانونياً ومؤسّسياً ، وبدلاً من أن

يجتهدوا بإزالة العقبات التى تحدّ من فاعليتها ، يواجهونها ، حتى وضعوا الدين ومصلحة البلد فى تعارض مع الحرّية ، قصدوا ذلك أم لم يقصدوه .

إن تخريب الفضاء الحياتي باسم الحرّية ، ومناهضة الحرّية باسم الدفاع عن الدين ومصلحة البلد ، هما وجهان لعملة واحدة ، وعلامة على المرض التاريخى لمجتمعنا ، الذى عاش قروناً مقهوراً تحت سلطة الاستبداد ، وأفضى ذلك إلى أن نعيش مزاجاً لا ينسجم مع الحرية .

ينبغى لنا فى دراسة مشاكلنا أن لا نعلّق أبصارنا على السلطة دائماً ، بل يتحتّم علينا ، قبل ذلك ، أن نتصالح مع الحرّية .

إننا اليوم ، فى جامعاتنا وفى مدارسنا وفى بيوتنا ، لا نتحمّل بعضنا بعضاً بسهولة وبساطة ، فلا تشكّوا لحظة ، فى أننا ما لم نتغيّر من داخلنا ، لا يسعنا أن ننتظر حلّ مشاكلنا من قبل الآخرين .

علينا أن نذعن بأن تجربة الحرّية ليست ميسّرة لنا بسهولة . وتعود هذه الحال إلى عاملين :

● الأول : لأن الاستبداد أضحى منّا طبعاً ثانياً ، فنحن جميعاً ننطوى على ضرب من الميل للديكتاتورية ، وهذا الوضع المؤلم يُلحظ فى جميع وجوه المجتمع وشئونه .

● الثانى : أننا نريد أن نمارس تجربة الحرّية فى عالم مملوء بسيطرة القوى العالمية وهيمنتها ، هذه القوى التى لا تفكر بغير مصالحها ـ هذه المصالح التى تتعارض مع حرّية واستقلال البلدان الأخرى ،

ولذلك فهذه القوى تستنفر كلّ قواها السياسية والعسكرية والمخابراتية والاقتصادية دفاعاً عن تلك المصالح . ومن ثم فإذا ما واجهت تجربة الحرّية مشكلة فى مثل بلدنا ، فعلينا أن لا نغفل عند دراسة المشكلة وبحثها ، عن واقع التآمر الأجنبى .

أجل ، نحن هنا بإزاء أمر يظهر وكأنه ينطوى على تناقض ظاهرى ، أو نحن مبتلون بصيغة « بارادوكسية »[1] (Paradoxal) بحسب التعبير المعاصر . فمن جهة لا تتوافر الفرصة للنموّ والتقدّم فى المجتمع إلاّ فى إطار الحرّية ، ومن جهة ثانية فإن الحرّية لا تستقرّ وتزدهر وتستحكم إلاّ فى مجتمع رشيد وناضج .

وبنظرى ، إذا ما تحلّينا بالتفكير العميق وبالإنصاف ، فسنصل إلى الحكم الصحيح الذى مؤدّاه أن تتقدّم الحرّية على التنمية .

بديهى أن الطريق إلى الحرّية وعر ومملوء بالمشاقّ والأخطار ، وما أبتغى توكيده ، مرّة أخرى أن مرادى من الحرّية فى هذا المضمار ، هو حرّية الفكر وتوافر عناصر الأمان فى إبرازه والتعبير عنه ، وتهيّؤ المقدّمات الكفيلة بالحفاظ على هذه الحرّية وضمان أمن الأحرار وأصحاب الفكر .

والأكثر من ذلك كلّه أنه لا يمكن الحؤول دون حركة الفكر ، ولكن غاية ما هناك ، إذا كان الجوّ الذى نعيش فيه حرّاً ، أن الأفكار ستبرز بصيغة متّزنة ، وسيكون المنطق هو المعيار الحاكم

---

(١) أى مفارقة . والمصطلح يستخدم ـ أحيانا ـ للزراية .

بين الأفكار ، ومن ثمّ ستتوافر فرص الانتخاب ، وتكون الأرضية مهيّأة لتنامى الوعى .

أمّا إذا غابت الحرّية فستطفح الأفكار فى ذهن المفكّرين ، أرادوا ذلك أم لم يريدوه ، وستنفلت خارج النطاق ، وتشقّ لنفسها سبيل الحياة السرّية ، وفى جوّ مثل هذا ، ما أكثر ردود الفعل العنيفة التى تبرز على السطح وهى ليست من سنخ الفكر بشىء فتظهر الأزمة فى المجتمع .

وإذا ما توخّينا الدقّة ، فيمكن أن نصوغ سؤالاً جاداً عن طبيعة العلاقة بين الحرّية والأمن الوطنى ، والتأثير الإيجابى للأولى على الثانى ، والتبعات التخريبية التى يُفضى إليها غياب الحرّية على الأمن الاجتماعى .

إن السبيل المطلوب والصواب هو أن تصل نخبة المجتمع وأن يصل مفكروه والمسئولون الذين ينشدون الخير فى إدارة الأمور فيه، إلى ميثاق يتوافقون فيه على الآتى:

- **أولاً: علينا أن نكفّ عن البحث فى العالم المعاصر عن مثال وحيد للحرّية يتحوّل إلى نموذج يقتدى، يصلح للتعميم على الأمم جميعاً.**

ومع أن جوهر الحرّية واحد ، لكن ما أكثر الأمم والشعوب التى تستطيع أن تجرّب وجوهاً مختلفة للحرّية بلحظ تفاوت الأوضاع التاريخية ـ الاجتماعية ، حتّى يكون لها خيارات مختلفة فى طىّ طريق الحرّية وتحديد أولويات مراتبها .

● ثانيا: علينا أن نسعى لخلق جوّ نستطيع فيه أن يتحمّل بعضنا بعضاً بسهولة، كما علينا أن نجتهد كى نصل إلى تعريف للحرّية يرضى الجميع، وأن نتوافق على الحدّ الأدنى وعلى الأولويات، شرط أن نؤطّر ذلك قانونياً، وأن ننظّم وضع المجتمع على أساس تلك المنظومة المقنّنة، كما نوفّر الضمانات الكفيلة بحفظ تلك الحال ودوامها .

فى ظلال حال كهذه ستغدو عملية التحوّل أسرع ، وتصير أكثر اطمئناناً وسلامة ، ويكون مستقبل مجتمعنا أوضح وأجلى .

وبعكس ذلك ، لا أدرى ما الذى سنُبتلى به غداً . فمع أن مصيرنا يتحرّك فى إطار حوادث يمكن التنبّؤ ببعضها ، لكن لن يكون لنا دور فى انبثاق الكثير منها ، فضلاً عن أننا سنكون عاجزين عن التحكّم بها والقضاء عليها .

صدر من سلسلة (فى التنوير الأسلامى)

العنوان	المؤلف
١ – الصحوة الإسلامية فى عيون غربية .	د . محمد عمارة
٢ – الغرب والاسلام .	د . محمد عمارة
٣ – ابو حيان التوحيدى .	د . محمد عمارة
٤ – دراسة قرآنية فى فقة التجدد الحضارى .	د . سيد دسوقى
٥ – ابن رشد بين الغرب والاسلام .	د . محمد عمارة
٦ – الانتماء الثقافى	د . محمد عمارة
٧ – تنصير العالم .	د . زينب عبد العزيز
٨ – التعددية الرؤية الإسلامية والتحديات .	د . محمد عمارة
٩ – صراع القيم بين الغرب والإسلام .	د . محمد عمارة
١٠ – د . يوسف القرضاوى : المدرسة الفكرية . والمشروع الفكرى	د . محمد عمارة
١١ – تأملات في التفسير الحضارى للقرآن الكريم .	د . سيد دسوقى
١٢ – عندما دخلت مصر فى دين الله .	د . محمد عمارة
١٣ – الحركات الإسلامية رؤية نقدية .	د . محمد عمارة
١٤ – المنهاج العقلى .	د . محمد عمارة
١٥ – النموذج الثقافى .	د . محمد عمارة
١٦ – منهجية التغيير بين النظرية والتطبيق .	د . صلاح الصاوى
١٧ – تجديد الدنيا بتجديد الدين	د . محمد عمارة
١٨ – الثوابت والمتغيرات فى اليقظة الإسلامية الحديثة .	د . محمد عمارة
١٩ – نقض كتاب الاسلام وأصول الحكم .	د . محمد عمارة
٢٠ – التقدم والاصلاح بالتنوير الغربى .	د . محمد عمارة
٢١ – فكر حركة الأستنارة . . وتناقضاته .	د . عبد الوهاب المسيرى
٢٢ – حرية التعبير فى الغرب من سلمان رشدى إلى روجية جارودى .	د . شريف عبد العظيم
٢٣ – أسلامية الصراع حول القدس وفلسطين .	د . محمد عمارة
٢٤ – الحضارات العالمية تدافع؟ . . أم صراع .	د . محمد عمارة
٢٥ – التنمية الأجتماعية بالغرب ؟ . . أم بالأسلام؟؟	د . عادل حسين
٢٦ – الحملة الفرنسية فى الميزان .	د . محمد عمارة
٢٧ – الإسلام فى عيون غربية . . دراسات سويسرية	ترجمة ا . ثابت عيد
٢٨ – الأقليات الدينية والقومية تنوع ووحدة . . أم تفتيت وأختراق .	د . محمد عمارة
٢٩ – ميراث المرأة وقضية المساواة .	د . صلاح الدين سلطان .
٣٠ – نفقة المرأة وقضية المساواة .	د . صلاح الدين سلطان .
٣١ – الدين والتراث والحداثة والتنمية والحرية	د . محمد خاتمى
٣٢ – مخاطر العولمة على الهوية الثقافية	د . محمد عمارة

الفهـــرس


نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ۹۳۸

إلى القارئ العزيز ..

فى هذه السلسلة الجديدة :

إذا كان «التنوير الغربى» هو تنوير علمانى ، يستبدل العقل بالدين ، ويقيم قطيعة مع التراث ..

فإن «التنوير الإسلامى» هو تنوير إلهى ، لأن الله والقرآن والرسول صلى الله عليه وسلم : أنوار ، تصنع للمسلم تنويرا إسلاميا متميزا .

ولتقديم هذا التنوير الإسلامى للقراء ، تصدر هذه السلسلة ، التى يسهم فيها أعلام التجديد الإسلامى المعاصر :

- د . محمد عمارة
- د . حسن الشافعى
- ا . فهمى هويدى
- د . سيد دسوقى
- د . عبدالوهاب المسيرى
- د . عادل حسين
- المستشار طارق البشرى
- د . محمد سليم العوا
- د . جمال الدين عطية
- د . كمال الدين إمام
- د . شريف عبد العظيم
- د . صلاح الدين سلطان

وغيرهم من المفكرين الإسلاميين ..

إنه مشروع طموح ، لإنارة العقل بأنوار الإسلام .

الناشر

